خريف المكان

رواية

نضال بوشقرة

إلى أبي العوض:

الذي استردّ حارة أبي حسانٍ الراحل

دع للآخرين فرصة كي يكونوا أحرارًا.
أحراراً في أن يقبلوك، أحراراً في أن يرفضوك.
دع الفرصة للآخرين كي يكونوا أحرارًا في أن يحبوك ولا يحبوك.

ديفيد فيسكوت

نحن ا لذين سلكوا ال صعب، و صعدوا الج بال نحو القـ مم، واخـ تاروا الـ ضوء الواضح، وصمموا على المواصلة حتى النهاية للوقوف على جذور المواقف.

نحن الذين لم نولد ولن نموت ،،،

إننا أبناء الحقيقة ...

الراحل أبو عقاب

من الجزء الثاني لرواية "حكاية خريف ومكان"

١- رحـــــــلاتٌ في المـــــــكان .

شخصياتٌ كثيرةٌ عشقتها، شخصيات وُجِدَتْ في قريتي، أثرت فـــي أحـــداثها طـــويلاً، وعاشت طويلاً، لكنها انتهت، ربما لم تمت، لكنَّ تأثيرها هو الذي انتهى، رحيلها أنهى دورها في حياتي، لكنها لا تزال تسكن داخلي، تأثيرها سيكون أبدياً في أعماقي، هكـــذا كانـــت تلـــك الشخصيات، بَقِيَتْ تعيش في أعماقي بعد رحيلها، كانت شخصيات أســـطورية بالنســـبة لـــي، ساهمت كلها في تكوينِ داخلي قبل أن ترحل، احتل كل منها مكانـــه المُمَيَّـــز فـــي أعمـــاقي، اشتركوا جميعاً في الرحيل، وأظنه سيكون الرحيل الأبديّ.

لم تكن هندُ فتاةً عاديةً بالنسبة لي، لقد كانت الفتاة التي تستحق أن تمتلك مستقبلي، بِكُـــلِّ رقـــةٍ وعنفوانٍ، لقد أحببتُها قبل أن أدري ما الحب؟ وكان حُباً صادقاً أبدياً، كلـــه مشـــاعر عشـــقٍ تجعلني أتوق لرؤيتها في كلِّ صباحٍ من صباحات مدرستي، كانت تماثلني في السنِّ، ربما لـــم تكن أجمل فتيات قريتي، لكنَّ رقَّتَهَا وإحساسها الهادئ كان يقتلني، الحُمْرَةُ التي ترتســـم علـــى خدَّيها خجلاً حين تلمحني أحدّق بها ارتسمت على جدران ذاكرتي بألوانٍ لـــن تُمحـــى، أردتُ التحديق فيها قاصداً، شبَّهتُ ذلك بما فعله والدي في حرب الخليج؛ فقد جلب مئات الأنواع من الموادِّ التموينية استعداداً لحصارٍ قد يمتد لسنواتٍ، أنا حدَّقتُ استعداداً لرحيـــلٍ وحصـــارٍ قـــد تفرضه هندٌ على نظراتي، قد يمتد لبقية حياتي. دورها في حياتي بـــدأ مـــع اقتـــرابِ موعـــد رحيلها، كانت أولى الشخصيَّاتِ التي تسكن داخلي، إعجابي بها كان إعجاباً خاصَّـــاً، عشـــت معها إحساساً جعلها تمتلك قلبي، ودفعها لأمتلك أنا قلبها، ظهـــرت فجـــأةً فـــي داخلـــي دون مقدِّماتٍ، واختفت كما ظهرت، فجأةً رحلت دون أن أجد وقتاً لبدء القصة معها.

أبو حسانٍ كذلك رحل، دون أن أتوقع رحيله، مع أنَّني كنت الوحيد الذي أعرف بمـــاذا كـــان يفكِّر؟ وماذا سيفعل؟ لكنَّه رحل، اختار هو موعد رحيله، دون أن يجعل لي وقتاً لأتوقع هـــذا الرحيل، هكذا كان بطلي الآخر، غريباً أكثر من التوقعات، ظنَّه الجميع مجنوناً، لكنَّني كنـــت أعرف أنَّه ليس بمجنونٍ، اختار موعداً لرحيله أو اختفائه، حدَّده بنفسه، ونفذه في موعدٍ ما كان ليرحل في سواه.

كنت أُكَوِّنُ داخلي، أشياءَ كثيرةً احتجت أن أتعلمها عن الحياة وعـــن الواقـــع، مشـــوار مـــن الذكريات لا ينتهي، شخصياتٌ احتلَّت مساحاتٍ شاسعةً في كياني، أبطالٌ سكنوني للأبد رغـــم رحيلهم عن واقعي، سكنوا أعماقي، سكوناً يأبى الرحيل.

ربما ليس من الغريب أن أقول بأن أبا حسانٍ كان أعظم عاشقٍ في قريتنا، لقد عاش قصة حبٍ شهدت لها قريتنا طويلاً، كانت قصة القرية لسنوات طويلة، كما قصص الحب الكلاسيكية في العصور القديمة. كانت قصَّته مع رشيدة، أجمل فتيات قريتنا في ذلك الزمن، قصةٌ نُسجت عنها حكاياتٌ وحكاياتٌ، لم يكن من السهل أن أعرف تاريخه وماضيه، رغم أنه ماضٍ ليس ببعيدٍ، لأنَّ الكثيرين حاولوا تجاهل هذا الماضي، عرفت لاحقاً أنهم تجاهلوه لأنَّهم أرادوا نسيانه، ولست أدري لماذا؟!

ليس من السَّهل على الإنسان أن يستحضرَ الذكريات القديمة القاسية، هذا ما تعلَّمته حين بحثت عن قصة أبي حسانٍ، كان بطلاً حقيقياً، كان أكثر من ساهموا في تكوين شخصيَّتي، كان الأكثر (بطولة)، ربما لأنَّه حاول مقاومة جميع عناصر قصتي، حاولَ مقاومة زمان قصَّتي وتغلَّبَ عليه طُوال السنوات الماضية، صمد أمام جميع شخصيات واقعه، حتى أنه لم يسمح لي ببناء حبكةٍ حقيقيةٍ بصموده الأسطوريّ، لكنه انهزم في النهاية، لا أعرف سبب هزيمته الحقيقيِّ، ربما الزمان قهره، وربما المكان أبعده إلى حيث لا يعرف الجميع، إلى مكانٍ جديدٍ لا أستطيع أن أقدِّمَهُ في القصة لأنه لا يزال مجهولاً، وأعتقد أنه سيبقى مجهولاً إلى الأبد.

كان أبو حسانٍ شاباً محبوباً، عاش في بيتٍ كبيرٍ يُعدُّ من أضخم البيوت في قريتنا آنذاك وأقدمها، في الحارة التي أصبحت (المكان) بالنسبة لي، لاسيما وقد أنتجت كُلَّ أبطالي، كان له شقيقٌ واحدٌ أكبر منه يدعى نجماً هاجر إلى أمريكا الجنوبية عندما كان بطلي صغيراً، انقطعت أخباره فور هجرته وظنَّه الجميع قد مات. والد بطلي رجلٌ يُقَدِّرُهُ الجميع، ذاع سيطه بالكرم والنبل، وأصبح يوماً بعد يومٍ من وجوه القرية، في مجتمعٍ ريفيٍّ يقدِّرُ صاحب الأملاك، لاسيما وأن البلاد كانت تعاني من الجوعِ الذي فتك بكثيرٍ من السكان آنذاك، في زمنٍ جار على الإنسان الفلسطينيِّ بقسوةٍ مفرطة. سكن أبو حسانٍ وأهله في ذلك البيت الكبير الذي كان يعدُّ قصراً في ذلك الزمن، بناءٌ قديمٌ لا يتذكر أحد من كبار السنِّ في القرية متى تمَّ تشييده؟ هكذا كانت حياة بطلي أبو حسانٍ، يعمل في أرض والده، ويعيش حياته سعيداً، بانتظار أيام قلبت تلك الحياة السعيدة رأساً على عَقِبْ.

تأثَّرتُ بقصة أبي حسانٍ كثيراً، كان رجلَ أسطورةٍ بالنسبة لي، كنت أتخيله بطلاً من أبطال الأساطير اليونانية القديمة، لم يكن قد قرَّر الرحيل بعد، أتذكَّرُ أسابيعه الأخيرة في القرية قبل رحيله، الأسابيع التي عرفته فيها، من خلالها حصلت على ماضيه وذكرياته المؤلمة من كل من عرف بحكايته، وتتبعته طويلاً بنظراتي، تمنيت أنَّني انتبهت له منذ مدةٍ طويلةٍ، وعندما

اكتملت قصته لديَّ، رحل فجأة وترك لي ذكرياته التي احتفظ بها طويلاً، لأنقِّبَ عن بقايا قصةٍ في عيونٍ تحبّذ ألا تعطيني أحداثها.

أعتقد أنَّ أبا حسانٍ كان يلاحظ اهتمامي الكبير به، اختار مكاناً وحيداً يجلس فيه طوال اليوم قرب بيته الكبير في وسط الحارة التي يعيش فيها، الغريبُ أنَّه يجلس في ذلك المكان في كلِّ الأوقات والفصول، لا يهمه حرَّ تموزٍ اللاهبَ أو بردَ (الكوانين) على رأي جدَّاتنا، تعرفت على بطلي والخريف قد استفحلت رياحه في شجر قريتنا الكثيف، الخريف الذي ستولد كلُّ قصصي اللاحقة من قلب سحقه لأوراق الشجر ولأمنياتي المتعددة، لم تكن الفصول المتتابعة تهمُّ بطلي أبو حسانٍ في شيء، كأنه تحدَّى زمان قصته التي أضحت قصتي. كان إذا اشتد سقوط المطر شتاءً يغادر مكانه مجبراً إلى منزله ولا يعود إليه إلا في اليوم التالي، لن تجدَه إلا في بيته حين يختفي عن مكانه المميز هذا، ربما هذا ما جعل الناس يظنون أنه مجنونٌ. كان يفكر طوال الوقت، لا أحدٌ يعرف بماذا يفكر؟ ربما في ماضيه التعيس، وربما في الماضي السعيد الذي سبق ماضيه التعيس، هكذا كان بطلي، رجل له أكثر من ماضٍ، بإمكانه تذكر كلُّ ماضٍ على حدةٍ، غريب أن نجد رجلاً مثله في هذا الزمن، هكذا قهر بطلي زمان قصَّتي، فقد عاش أزماناً مختلفةً، وتوقف في مرحلةٍ ما ليعرض ذلك الزمان في مخيلته، كأنَّه عاش سيناريو فيلمٍ واستعدَّ بنفسه لتصويره، سيكونُ ذلك أصدق سيناريو تعرفه الأفلام. حتى حبكتي قهرها بطلي الأسطوريُّ هذا، فقد ألغى كلَّ الحبكاتِ فجأةً عندما لم أجد أهمية لطوال انتظاره في ذلك المكان صيفاً وشتاءً، ما قيمة الحبكة عندما رحل فجأةً بعد الانتظارات الطويلة؟ ترك المكان الذي جلس فيه أشهراً وسنواتٍ ينتظر شيئاً لم يأت، كَوَّنْتُ حبكتي بانتظار حصول شيء عظيم من طول انتظاره، وكانَ الرحيلُ هو الحل، بدون مفاجآتٍ انتظرتها أنا أكثر منه...

كنتُ (في تلك الأسابيع القليلة) أخرج من منزلي فقط لأراه، أنظر إليه طويلاً، وأحدِّق في تفاصيل وجهه المُجَعَّدِ الذي شوهه الزمن، وجه يشبه وجوه الأقزام في الحكايات الخرافية القديمة، انعزاله عن الحياة جعل منه "روبنسون كروزو" جديد، لكنه كان "روبنسون المنعزل في قريته" وليس في جزيرةٍ بعيدةٍ عن العالم المتحضر، لم يكن يحدثني إلا نادراً، ربما فعلها مرةً وحيدةً طيلة تلك الأسابيع التي كنت أخرج فيها لأجلس بقربه، سألني ذات مرة:

- خلصت المدرسة يا عبد الله (كان يُناديني باسم أبي).
- آه ... خلصت الصف العاشر وجبت تقدير ممتاز (أجبته بسرعةٍ متلهِّفاً للحديث معه).

- لما تصير بالجامعة لازم تدرس انكليزي زي أبوك، عشان اسلموك في المعارف مطرحه لما يتقاعد (وضحك بعد هذه الجملة ثمَّ سكت).

كان هذا أطول حديثٍ أخوضه مع أبي حسانٍ، صرت أتذكر هذا الحديث الآف المرات خلال الأسابيع التالية، لم يكنْ حديثُ رجلٍ قد فقد عقله، حاولتُ تفسير كلماته القصيرة الموجزة التي قالها لي، كانت سطراً قصيراً عنى ليَ الكثير، ربما رسخ في داخله أنَّه خان أباه بأنَّ حياتَه تدهورت ووصفت بالجنون، ولم يصبح رجلاً عاقلاً طيباً معطاءً لأنه أضاع كلَّ شيءٍ. كان صعباً عليه أن يُضيع كلَّ القيم التي حاول والده تعليمها إليه، هكذا تصور لي خلال تفسيري لتلك الكلمات القليلة التي حدَّثني بها، لا أعرف كذلك لم ناداني باسم أبي، قد يكونُ لذلك دلالته أيضاً، اختزلت الجملة التي قالها لي كلَّ ماضيه وحياته وكلَّ آلامه، والضحكة الغريبة التي لحقت مباشرةً بالجملة تلك أكَّدت تفسيراتي، كانت ضحكةً بها الكثيرُ من الندم والحسرة، كأنَّ ضحكته قالت جملةً جديدةً لحقت بجملته تلك، خَجِل إظهارها أصواتاً وكلمات:

– وإيّاكَ إياك أن تقتل حلم أبيك، كما فعلتُ أنا....!

بالتأكيد لم يكن مجنوناً، الآم ماضيه التعيس أظهرته كما عهدته قريتنا منذ سنواتٍ طويلةٍ، كان يغيبُ في ذكرياتٍ تشبه الجنون (بالنسبة لمن نعتوه بالجنون)، أسابيعٌ قليلةٌ رأيته فيها منذ عرفت بقصته وصارت عندي أزمانٌ طويلةٌ بعد رحيله، رحل دون أن يمنحني وقتاً كافياً لِأُكَوِّنَ داخلي، رحل دون أن يحدثني حديثاً ثانياً يسمحُ لي بتذكره فيه، رحل فعلاً لكنَّه لن يموت في أعماقي... ما حييت.

غبتُ طويلاً في تفسيراتي الخاصة بعد رحيل أهم شخصيتين في حياتي، حينما رحل أبو حسانٍ أحسستُ باهتزازاتٍ عنيفةٍ في داخلي، كأنَّ أحد الأعمدة التي يستندُ إليها وجداني قد تداعى للسقوطِ، رغم بقائه عموداً في ذكرياتي لا يسقطُ، الغريبُ أنَّ سقوطه ورحيله جاء بُعَيْدَ رحيل هندٍ بوقتٍ قصيرٍ، كأنَّ شخصياتي اتفقت على الرحيل وتركي في صراعاتٍ مع حبكاتٍ وأزمانٍ لا أفهمها، صحيح أن رحيلَ هندٍ كان رحيلاً عادياً وغيرَ مفاجئٍ، هكذا كان تفسيري لرحيلِها، اختارت الغياب الأبديَّ خارج مكاني وحارتي، بل خارج القرية كلِّها بعدَ أن وافقت على رحيلها، أرادت الغياب بعيداً عن كلِّ شيءٍ يذكِّرُهَا بأنني لا زلت موجوداً في مكانٍ ما في القرية، وربما في الحارة نفسها، فبطلتي هذه عاشت في المكان الذي سكنني، الحارة التي أخرجت كلَّ أبطالِ قصَّتي، تركتِ الحارةَ إلى غير رجعةٍ. ربما عزمت في داخلها ألا تعود

لتلك الحارة لتعيشَ حُلُماً من جديدٍ، أرادت لرحيلها أن يكون أبديَّاً بعيداً عن عالمي، ستبقى في حياتها الجديدة مهما حدثْ، هكذا توقعت في داخلي... عند التفكير بها.

هندٌ كانت فتاةً تمتلك أجمل الأحاسيس، يدقُّ قلبي حين أراها، لا أعرف سبباً مباشراً لحبها، ولا أذكرُ موعداً معيناً أعجبت بها فيه، كأنني أحببتها منذ أزمانٍ بعيدةٍ، وكأنني أعرفُها قبل أن أولد، لاحظت اهتمامي الكبير بها، لم تكن تهتم بي مطلقاً، لكنَّها لم تستطعْ مقاومة سنوات اهتمامي المتزايد بها، حاولت التجاهل والابتعاد، حاولت نكران حبي لها، حاولت مقاومة نظراتي (الوقحة!) لها، لكنَّها انهارت في النهاية، تمنَّتْ أن أكون لها وتكون لي، تمنت أن نكون أجمل عاشقين في تاريخ قريتنا، تمنت أن نتغلَّبَ على قصة أبي حسانٍ بحبنا الجنونيِّ الكبير، كانت تظهرُ في كلِّ موقفٍ أتخيل فيه جزءاً من مستقبلي، لم أتصور مستقبلاً لي بدونها، كان حباً تاريخياً، وهند بادرتني، اعترفت بحبها لي، وأنا أضعت حبها بلا مبررٍ، حتى أنني لم أجرؤ أن أبرر، لم أجرؤ أن أردَّ، لم أرد أنا وهي ردَّت عليَّ سريعاً... بالرحيل.

كان ضياعاً حقيقياً لي بعد رحيل هاتين الشخصيتين، كانتا شخصيتين وحيدتين لي في بدايةِ تكويني لداخلي، مستحيلٌ أن أكون لهندٍ في ظلِّ ظروفٍ قاسيةٍ لا تسمح لي أن أقحمها في صراعاتٍ لا تعنيها، لا يزال "عودي طرياً" كما يقولون، كنتُ مقتنعاً جداً بها، لكنني رفضت أن أعيش مجرد قصةٍ تنتهي بزواج حبيبتي من غيري، كانتْ هندٌ قرباناً لداخلي قدمته مكرهاً، لكنني يجب أن أجرِّبَ أكثر في هذه الحياة، كيف إذاً سأُكَوِّنُ شخصيتي وكياني؟ كنتُ أندمُ كثيراً عند التفكير بها. ما ألبث بعدها أن أترك ذلك الماضي الذي لن يورثني إلا ندماً فارغاً وأحزاناً حقيقيةً، عزمت أخيراً على ترك الماضي والاستعداد لما بعد رحيل أبطالي، اتَّجهتُ إلى التفكير بالمكان الذي أنجبهم، سأحاول فهم المكان (الحارة)، هل انتصر المكان في قصتي؟ هل هَزَمَ كلَّ الأبطال وكلَّ عناصر قصتي؟ أم أنَّ هناك أبطالٌ بإمكانهم هزيمةُ المكان؟ فاجأتني تلك العبارة حينما ظهر بطلي الجديد، حتى أنني تفاجأت أن يكون هو، هل يعقلُ ذلك؟ إنَّها عبيرٌ.

لم أكنْ منتبهاً لعبيرٍ طوال فترة حبي لهندٍ، إنها شقيقة هندٍ، عرفت بقصَّتي مع هندٍ أو (اللا قصة) كما أحبُّ تسميتها، تأثَّرتْ بها خاصةً عند رحيل هندٍ، اعْتَقَدَت عبير أنَّ هنداً رحلت منهزمةً، وتزوجت زواجاً أشبهُ بالقسريِّ، أُعْجِبَت بي لأنني كنتُ وفياً لهندٍ -كما اعتقدت-، لم تكن عبير تتجاهل نظراتي لهندٍ خلال تلك السنينِ وعرفت أيَّ عاشقٍ كنت أنا! وبعد رحيل هندٍ بدأت قصة جديدة مع عبير، أكثر صراحةً وأقلَّ ندماً.

غابت تلك الشخصيات الراحلة عن واقعي يوماً بعد يومٍ من تفكيري، لم أنسها طوال الوقت، لكنَّ اهتمامي المتزايد بها قد قلَّ، أصبحت ذكرياتٍ لا تنسى وسكونها في داخلي صار أبدياً، أبو حسانٍ المجنون بالنسبة للناس رحل الآن وبدأ أهل قريتي بنسيانه، فهم لا يتذكرون إلا يوم رحيله، صار يذكر في مجالسهم كأنَّه رجلٌ مجنونٌ مات أو اختفى، يضحكون كثيراً على قصصٍ حيكت حول رحيله من بعض روّاد مجالسهم، قالوا إنه رحل خوفاً من الجنيَّاتِ اللاتي يظهرن له في بيته الكبير الذي أصبح ضارباً في القِدَمِ والخراب، حتى أن بعضهم اتَّهَمَ الجنيات بخطفه وسرقته، قالوا وقالوا الكثير عن اختفائه، وأنا الوحيدُ الذي يحملُ بعضاً من ذرّات الوفاء لذلك البطل. قرر أن يرحل ولوحظ اختفاؤه صباح أحد الأيام، لوحظ عدمُ تواجده في بيته ولا في مكانه المعتاد، كان بابُ بيته القديم مفتوحاً، دخله أحد شيوخ القرية ليتفقدَهُ ظاناً أنه قد مات، لم يجده، بحث الجميعُ عنه ولكنه اختفى، عرفت أنا أنه قرر الرحيل لكنني لم أبح لأحدٍ بذلك، لا يستحق أحدٌ أن يعرف حكايته، ولا أحدٌ سيتفهمها أيضاً، عرفتُ في قرارة نفسي أنه لن يظهر مجدداً، لقد قرر الرحيل الأبديَّ بعيداً عن كلِّ القرية، وبعيداً عن المكان الذي قلب حياته من الزوج السعيد إلى الرجل الذي فقد عقله. لكنَّ سؤالاً قد حيرني طويلاً حول رحيل بطلي: لماذا الآن؟ لماذا لم يرحل حين انقلبتْ حياته رأساً على عَقِبْ؟ لماذا انتظر سنواتٍ طويلةً ليرحلَ في يومٍ معينٍ لا يختلفُ عن باقي الأيام؟ أليس هذا جنوناً أيضاً؟!

ما أقسى الغيرةَ! تقتلُ أحياناً، وتصيبُ بالجنونِ، أو حالة شبه الجنونِ التي عاشها بطلي. انتهت قصة حبه نهايةً سعيدةً، تزوج من رشيدة أجملُ فتيات القرية آنذاك، كان زواجاً رائعاً فرح أهلُ القرية به، الشابُّ الخلوق الطيب ابن الرجل الذي يحبه ويحترمه الجميع يتزوجُ بجميلة الجميلات، كأنهُ زواجٌ في العصور الكلاسيكية، زواجٌ لا يزالُ الكثيرون يتذكرونه رغم مرور أكثر من أربعة عقودٍ على مروره، ورغم حدوث مئات الزيجات بعده، لكنه لم يكن لينسى، ربما لأن أبطال هذا الزواج عشعشت قصتهم في الأذهان لما تبعها من آلامٍ، وربما كان هذا الزواج هو الأشهر لأنه كان سبباً في تعاسة أبطاله، بعكس ما كان متوقعاً من رشيدة الفتاة ساحرة الجمال وأبي حسانٍ المحبوبُ للجميع.

- لا تجعل الآخرين يفرقوا بيننا.

هذا ما قالته رشيدة لزوجها قبيل الفراق، توقعت هي الفراق، وكانت تتوقع أن ما يدور في الخفاء أشياءُ ليست في صالح حياتها مع زوجها، كلماتها في تحذيره كانت مختصرةً، مثلما كانت كلماتُ أبي حسانٍ مختصرةً في توجيهي لدراسة تخصص اللغة الإنجليزية في المستقبل، أعجبني كثيراً وصفُ (الآخرين) في تحذيرها ذاك، من هم يا ترى؟ ربما رمزت في لفظة

الآخرين إلى أناسٍ تقصدهم، لكن لماذا وصفتهم بلفظة عابرة؟ فتحت لي هذه الأسئلة مجالاً للبحث عن أشياءَ كثيرةٍ كنت أجهلها سابقاً عن حياة أبي حسانٍ، لكنّ أبا حسانٍ لم يعرِ للأمر أيَّ اهتمامٍ؛ فما كان لتوقعات رشيدةً إلا أن انفجرت بركاناً دمر حياتها وحياة زوجها، بركاناً سيجعلُ أبا حسانٍ رجلاً يرحلُ عن القرية بعد سنواتٍ طويلةٍ يحملُ جرحاً لا يندملُ، ورشيدة ترحل إلى زوجٍ آخر لا تحبه، وتحملُ في ذكرياتها حباً كبيراً لزوجٍ سابقٍ أصبح يعيشُ شبه حياة، أو قل على هامش الحياة.

لم تكن الحياة بالنسبة لأبي حسانٍ تنبئه بويلاتٍ ستشهدها أيامه المقبلة، الجميع قد شارك في حفل زفافه، كان زفافاً قروياً فلسطينياً بامتياز، حضر الجميع من أهل القرية ووجوه القرى المجاورة، كان عرساً جميلاً استمر حتى الصباح، شارك الجميع في (الزفة) في ذلك العرس التاريخيّ أيضاً، تناولوا جميعاً ولائم العرس وشاركوا في (زفة) العريس، وقدَّمَ العريسُ شاةً لشباب حارة عروسه كي يسمحوا بخروجها من حارتهم –وفق عادة فلسطينية جميلة لم تعد موجودة– وهكذا كان العرس الجميل، وانتهى يومٌ كان من أجمل أيام بطلي بفرحٍ كان قد عمَّ الجميع، ليسكنَ العروسان في البيت الكبير، البيت التاريخيّ في حارتي التي أعشقها، لتتفرج أسارير العائلة، وأصبحت الحياةُ أكثر سعادة للجميع لينتظروا يوماً تفرَّق فيه الجميع، وانكسرت سعادتهم وذابت كما يذوب الجليد.

هكذا كان ماضي أبا حسانٍ، بحثتُ عن قصته في كلِّ مكانٍ، عبرت لدهاليز طويلة في نفوس من يتذكرونها، أخبروني الكثير عن شبابه، لم أجد أشياء مهمة تجعلني أفسِّر توقيت رحيله، كان توقيتُ هذا الرحيل يستفزني، كنت أعرف في قرارة نفسي أنه كان يجب أن يرحل، حتى أنني شعرتُ بتأخره سنوات طويلة في رحيله واختفائه، لم يكن رحيله مفاجئاً بالنسبة لي، لكن في نفس الوقت لا بدَّ أنه لم يختر هذا الموعد لرحيله عبثاً، هناك سببٌ كبيرٌ كنت أجهله، لا بدَّ أن أعرفه لأضيف ذلك إلى حبكتي، فهو قد انتظر شيئاً مهماً أَتَمَّه ورحل، سنواتٌ طويلةٌ قضاها بعد انكسار حياته في مكانٍ واحدٍ تقريباً ورحل في ليلةٍ عاديةٍ، حتى أنَّه رحل في الليل، لأنه أرادَه رحيلاً أبديَّاً بالفعل.

أردتُ إنهاء قضية أبي حسانٍ من قصَّتي ومن أعماقي، أردتُ لكلِّ غموضي وغموض شخصيته في قصتي أن ينتهي كما انتهت رحلتي مع هند، سيبقى في داخلي ذكريات لا تنسى، لكنَّ تأثيره القويَّ في داخلي يجب أن يزول ليسمح لغيره بإلقاء تجربته في داخلي، حاولتُ البحث عن أشياءَ أكثر تفصيلاً في حياته، رشيدة أحبته حباً شديداً، هذا ما قاله لي أحد من عاصروا قصته وكان أحد عشاق رشيدة هو الآخر، رغم أنها كانت تمتلك مئات الفرص من

عشاقٍ تمنوها وحوَّلوا طريق منزلها إلى مقصد أشبه بمزارٍ من مـــزاراتِ الأوليـــاء، لكنهـــا رفضتهم جميعاً واهتمت ببطلي أبي حسانٍ فقط، عشقت رشيدة أبا حسانٍ وطالت قصتهما معاً، كان بطلي يظهر بالقرب من منزل رشيدة باستمرارٍ، لكنه لم يكن مع شبان المزار هؤلاء، كان يعمل في أرض والده القريبة من منزلها، وصارت بينهما تلك القصة التي عرفها الجميع بأنَّها أصدق قصة حب عرفوها طيلة السنين.

ربما تبادل العاشقان هدايا الحبِّ، لم تكن هذه التفاصيل تهمني في شيء، لكنني يجب أن أسمع ما أريده وما لا أريده من شخصٍ تبرع بإعطائي تفاصيل قصةٍ أبحث عنها، لم أشأْ مقاطعة من يسرد عليَّ هذه القصة رغم تطرقه لتفاصيل هامشية، خشية أن تكون مقاطعتي له ســـبباً فـــي نسيانه أمراً ما، لا يهمه نسيَهُ أم تذكرَه، ويكون عندي ذلك الشيء (حلاً) للقصة التـــي أبحـــثُ عنها، هذا ما خَلُصْت إليه من تفاصيلٍ في قصة حبه، أشياءٌ صدقتُها وأشياءٌ لم أفهمها، ربمـــا من روى القصة لي قام بنوعٍ من (التمليح والتبهير) للقصة كما يقولون، بحيث لا أستطيع أنـــا أن أصحح به (تبهيرَه) للأحداث، وما أصدق المثلَ القائل: (ما أكذب من شب تغرب إلا ختيار ماتت أجياله!)، ضحكتُ كثيراً حين فكرتُ بهذا المثل الذي أصفُ به راوي قصَّتي، فهـــو لـــم يصل بعد إلى حدِّ الكذب في القصة، كما أنه ليس (بختيارٍ ماتت أجياله) ليكذب كيفمـــا شـــاء، شردت قليلاً عن التفكير بأبي حسانٍ لأفكر في الراوي المملح والمبهر، أضاف لي نوعاً مـــن الارتياح من قصةٍ انزعجتُ لتطوراتها السيئة فيما بعدٌ.

من المؤكد أنَّ هذا الزواج سبقه الكثير من الخوف والمغامرة من هذين البطلين، لكنني لم أكن مهتمَّاً بتلك الأحداث القديمة لأنَّ بحثي كان عن سر التوقيت الذي رحل فيه بطلي، لماذا انتظر سنواتٍ طويلةً بعد انكسار حياته ليرحل في يومٍ محددٍ؟ وكونه ليس مجنونـــاً (بالنســـبة لـــي) فرحيله هذا يمثلُ لغزاً كان لا بدَّ أن أعرفه، وهذا اللغزُ لن يكون في مرحلةٍ ما قبل زواجـــه، أعتقدُ أنه بعد الفراق، أو على أكثر تقديرٍ مع حالة الفراق، ولم تكن تصوراتي لتخطـــئ كبـــد الحقيقة...

مضت بضعُ سنواتٍ على زواج بطلي أبي حسانٍ ورشيدة الفتاة الجميلـــة، ظهـــرت ملامـــح المستقبلُ لأبي حسانٍ، فحسانٌ قد ولد أخيراً وصار لهُ شقيقاتٍ ثلاث، لتكتمل معاني الفرحـــة في هذا البيت السعيد، اكتمالٌ للسعادة صار يعني انتهاءها، لقد استنفذت هذه العائلة كل السعادة المحددة لها، ليبدأ عصر السداد الذي سيستمر لسنواتٍ طويلةٍ جداً، سدادٌ قُدِّرَ لهم دفعـــه مـــرةً واحدةً ولم يعرفوا لمن سددوه؟ كان الحدث الأول الذي افتتح لهم فاتورة السداد الطويلـــة هـــو وفاة والد العائلة، والد أبي حسانٍ بطلي، موتٌ طبيعيٌ مقدرٌ، الغريب أنه مات في أول يوم من

أيام السنة في بداية العام الجديد، لا أدري أنا أيَّ عامٍ كان، لكنه بالتأكيد يقع في ستينيّات القرن الماضي، هذا الموتُ في هذه البداية لعامٍ جديدٍ لن يكون الموت الوحيد في هذه السنة لتلك العائلة، وسيعقبه أشياءُ كثيرةٌ تحتوي في داخلها لفظة (رحيل).

مضت أشهرٌ عديدةٌ حاولت العائلة نسيان والدها، ذلك الوالد الطيب الذي يمثل رأس العائلة، ولكن فور عودتها لحياتها الطبيعية، صارت حكاياتُ حقدٍ تشتعل في قلوبٍ كرهت السعادة التي عاشتها هذه العائلة وتعيشها، أبت القلوب السوداء إلا تكريس كلِّ الطرق لتسدَّ مسيرة السعادة لهذه العائلة، وكان أبو حسانٍ هو الطريق لإحداث قَلْبَةٍ في حياة تلك العائلة، فجأة قَلَبَتْ الحياةُ أبا حسانٍ، أصبح رجلاً آخر في منزلهِ، تصرفاته ساءت مع جميع أفراد عائلته، مشاكلٌ كثيرةٌ صار يفتعلها مع أهله، حتى مع زوجته المخلصة رشيدة ومع والدته الحنونة، في النهاية لم يُعرفْ سببٌ لذلكَ مطلقاً، عُرِضَ على أكثر من طبيبٍ دونما نتيجةٍ، ومع مرور الأيام ازدادتْ مشاكلُهُ بسببٍ وبدون سببٍ وتطورت في بعض الأحيان إلى آلامٍ شديدةٍ تصيبه في رأسه يفقدُ على أثرها وعيه، لا أسبابٌ طبيةٌ ولا نفسيةٌ، تفاقمت مشكلة العائلة مع هذا الحدث المريب، طُرِدَتْ رشيدةُ مراراً بواسطة بطلي (المجنون!)، وصلت المشاكل إلى عائلة زوجته أخيراً ودارت بينهم وبين بطلي مشاكلٌ عديدة، وخُتمت مشاكلهم أخيراً في ليلةٍ مؤلمةٍ حزينةٍ، رحلت رشيدة من الحضن الكبير في بيت أبي حسانٍ وقررت منح فرصة لتعديل سلكوه المريب، أبو حسانٍ لا يعرف سرّه أحد، تفاقمت المشكلة وأخذت أبعاداً جديدة، إنه الطلاق إذاً! وقع الطلاق بينهما، طلاقٌ أظنه لم يقع في أيِّ شرعٍ أو قانونٍ، استنتجتُ ذلك حين عرفتُ أسباباً مهمةً لكلِّ ما وقع من أحداثٍ سيئةٍ لتلك العائلة في تلك المرحلة .

غادرت رشيدةُ واقع زوجها للمرة الأخيرة مصطحبة معها أطفالها الصغار مع حزن شديد أصاب من تبقى من أفراد العائلة، وسط شرودٍ مخيفٍ أصاب أبا حسانٍ، أعتقد أنه لم يحس بشيء منذ بدأت حالته الغريبة، لم يفق من هيستيريته الجنونية إلا بعد هزيمته في المعركة الفاصلة مع عدوه المجهول، رحلتْ رشيدة رحيلها الأخير، سنواتٌ قلةٌ عاشتها مع زوجها لتنتهي قصة الحبِّ الرائعة أيما نهايةٍ.

كلُّ هذه الأحداث السيئة جرت في نفسِ العام الذي افتتحه والد العائلة بالموت المقدر، كان عاماً قد قرر مصير تلك العائلة، عام أنهى رجلاً كان يُدعى فيما مضى أبو حسانٍ، عامٌ لم تنته مآسيه بعد، فقد تبع ذلك حزنٌ جديدٌ، رحلت أمُّ العائلة كَمَداً على ما جرى، لم تستطع والدة أبي حسانٍ الصمود أمام تلك المأساة التي حلَّت بهم، وما أَثَّر بها أكثر هو استمرار آلام ابنها وسوء

حالته وذهوله عن الجميع، ظنته هي الأخرى قد جُنَّ، وماتت، هذا ما جرى في أسابيعٍ قليلةٍ في نفس العام المشؤوم.

وبدأ هدوء أبي حسانٍ الطويل، منذ تلك الأيام السوداء حتى رحيله الأخير، بقي لسنواتٍ طويلةٍ صامتاً مفكراً، امتدَّ صمته وتفكيره أربعين سنة، ظلَّ يفكر فيما أصابه أربعين سنة قبل أن يصل لحلٍ ما ويرحل، رشيدة رحلت، تزوجت بعد فترةٍ ليست بطويلةٍ من طلاقها، أهلها زوجوها ورحلت بعد قصة حبٍ وزواجٍ كانت أشبه بقصص ألف ليلةٍ وليلةٍ، لتنتهي حكاية أميرة عصر النبلاء أيما نهاية! رحلت ودمعٌ –أظنهُ– لن يجفَّ في عينيها يتساءلُ عن سببٍ لكلِّ ما جرى، جهلت رشيدة سبب كلِّ مآسيها وزوجها، وربما ستبقى تجهل ذلك للأبد.

قصة زواجها كانت غريبة، فبعيد الفراق الذي جرى تألمت كثيراً ومكثت في منزل والدها حزينة، بكت طويلاً على أسبابٍ لم تعرفها، بضعة أشهرٍ بكتها في ألمٍ وحسرةٍ، لينتهي هذا البكاء في ليلةٍ واحدةٍ تشبه ليلة الرحيل الأسطورية لأبي حسانٍ، دخل عليها والدها غرفتها، لم يفعلها طيلة حياته، هي مرة وحيدة دخل فيها غرفتها، لم يتدخل أثناء حزنها لأنه أرادها أن تحزن، أشياء كثيرة فعلها للمرة الأولى في حياته مع ابنته الحزينة، لم تتوقع هي ذلك، كان والدها الأقرب لنفسها ومثلها الأعلى، بل كان أكثر من تحب في حياتها، ربما أكثر من زوجها وحبيبها أبي حسانٍ حينما كان زوجاً عاشقاً، حدَّثها هذا الوالد طويلاً، لا يعرف هذا الأب إلا لغة الاستقامة، يثقُ به الجميع، هكذا أخبروني عنه، حكاياتٌ وحكاياتٌ سُردت لي عن صدقه واستقامته وأخلاقه النبيلة، كان مثلاً يحتذى به بجَلَده في ميادين الحياة الصعبة، حدثها عن معاركه في الحياة وعن الصبر، حدَّثها عن وقائع الألم في حياته، وحدثها عن والدتها الراحلة وقصته معها... وبكى، بكى هذا الوالد الصبور أمامَ ابنته الحزينة، لم يبكِ طيلة حياته، حتى مع رحيل زوجته والدة رشيدة عن الحياة، لم يبك، رجلُ المواقف الجبارة بكى مرغماً، لم تتمالك ابنته هذا الموقف الرهيب، والدها الصبور الذي لم يبك طيلة حياته يبكي الآن بدموعٍ انهمرت ساخنة، لم يبك أيام الثورة والاعتقالات الطويلة عند الإنجليز، كاد يعدم مرات عدة ولم يبك، وبكى الآن من أجل ابنته الغالية، استذكرتْ رشيدة تلك المواقف وانهالت تقبِّلُ والدها الصبور، قبلات حب هيستيرية لهذا الوالد الغالي، في تراجيديا محزنة لم يتمكن (أرسطو) من معالجتها والوقوف على نتائجها غير المتوقعة، لحظات من المشاعر الرهيبة لا شبيه لها إلا في مسرحيات (يوربيديس)، حيث صوِّرت الحياة بواقعيةٍ والأبطال يعيشون كما هم في الواقع، وانتهى مشهدُ أبطالي الانفعاليّ.... نهائياً.

انتهى كلّ شيءٍ بالنسبة لرشيدة، أحزانها كلّها أصبحت ماضياً، ربما سيكون ماضياً لن يُنسى، لكنَّ ذلك الموقف الرهيب مع والدها في تلك الليلة جعل منها إنسانة جديدة، خُلِقَ الحلمُ والمستقبلُ مجدداً في حياتها، ربما لم تتم ليلتها الأولى بعد معركتها الفاصلة مع ذكرى أبي حسانٍ، لكنها أنهت معركة ليلتها منتصرة، عكس زوجها المهزوم، تزوجت في الأردنِّ ورحلتْ عن واقع أبي حسانٍ وعن واقع قصتي إلى الأبد، هكذا كان والدها، رجلاً يستحق أن يدخل أعماقي بصبره وصدقه، أحببته أنا مع أنني لم أعرفه، لكنني نسيته بعد فترةٍ، فهو لم يكن سوى قصةٍ عابرةٍ داخل قصتي مضت وانتهت منذ زمنٍ بعيدٍ.

لا تزالُ شخصيَّاتي الراحلة تتشبثُ بمكانٍ ما في أعماقي، صحيحٌ أنها لن تختفي من تلك الأعماق، لكنَّها ستضمحل يوماً بعد يوم، وسيأتي يومٌ تصيرُ فيه ذكريات، قصة أبي حسانٍ الأليمة صارت ذكريات لأهل القرية، بل لبعض أهل القرية، نسيها معظم أهل القرية وبعضهم لم يعرفها أصلاً، وأكمل هو مشروع ذلك النسيان برحيله الأبديِّ، تذكره البعض لوهلةٍ يوم رحيله، ليعودوا ينسونه النسيان الأخير الذي لن يتذكرونه بعده، رحل أبو حسانٍ وسبقته رشيدة بالرحيل، صحيحٌ أنَّ كلَّ واحدٍ منهما رحل إلى مكانٍ خاصٍ به وفي زمنٍ اختاره بنفسه، لكنهما اشتركا في الرحيل، أبو حسانٍ رحل بعد سنواتٍ طويلةٍ من رحيل زوجته، لكنه رحل، هندٌ كذلك رحلت، اختارت زمنها الخاص بها ورحلت تاركةً كلَّ عاشقٍ أنانيٍّ يختارُ زمنه ومكانه بنفسه، رحلت رحيلاً أبدياً، ربما تزور الحارة مراراً بعد ذلك، لكنَّها لن تعيش قصة فيها مجدداً، رحيلها عن قصتي صار أبديَّاً. عبيرُ وحدها لم ترحل بعد، قصتي معها لم تكن قد بدأت حين أعطتني شارةَ البدءِ، إشارةً سرت في كلِّ أعماقي وسارت بين شخصياتي الساكنة في تلك الأعماق، تلك الإشارة التي استقرت بجانب هندٍ ووعدتها بعدم تكرار مأساتها معي، عاهدتها ألا تنعت هي بالراحلة الحزينة كما نُعتت هند... على الأقلِّ في فصل المكان.

كان صباحاً من صباحات كانون الثاني، ربما كان العام 2002، بردٌ شديدٌ وبدايةُ تساقطٍ لحبَّات المطر، وقفتُ أنا وقفتي المعتادة أمام دكان العم إبراهيم قرب منزلي أنتظر صديقي كي نذهبَ إلى المدرسة سويَّاً، لم أُطلِ انتظاري، لكن الزمن الذي كان بين بداية لحظات انتظاري ووصول الصديق كان كافياً لأتلقَّى شارة البدء لقصةٍ باقيةٍ قد تنتهي بالرحيل... وهو نهايات أبطال قصتي الطبيعية! لكنَّ بطلتي الجديدة هذه قد لا ترحل، ربما يكون رحيلها مختلفاً، هذا ما لا أستطيع تنبؤه، على الأقل في هذا الفصل، كاد صديقي يصل، لكنَّ السيارة لتي تُقِلُّ عبير وصلت قبله، كانت تجلسُ في الكرسيِّ الخلفيِّ متجهةً إلى المدرسة، أصبحت السيارةُ أمامي مباشرةً وعبير تنظرُ إليَّ من شباك السيارة المغلق بسبب البرد، وعندما أصبحت أمامي مباشرةً مسحت بيدها الشباك، أرادت إزالة الرذاذ الذي غطَّى الزجاج لترى، مسحت الرذاذ

أمام الجميع، وأرادت في الحقيقةِ إزالةَ الغشاوة المتبقية على قلبـــي، أرادت أن تقــولَ: لنبــدأ القصة، هذا ما أخبرتني به لاحقاً، وهذا ما كنتُ أعرفه قبل أن تخبرني به، حركَّت يدها كأنَّها أرادت الإطالة والسلام عليّ، ربما رمت سلاماً عابراً في داخلها، وربما رددتُ أنا على ذلــك السلام في أعماقي أنا الآخر، لوحت بيدها لي في حركةٍ مكشوفةٍ واضحةٍ، لي فقط، لأنَّ تلــك الإشارة لم يرَها أحدٌ سواي، قالت إنها أرادتها فاتحة قصة قبل السؤال الذي لم تُرِدْ الافتتاحَ به، كي لا تنتهي القصة قبل أن تبدأ، كما كان سابقاً مع تلك الراحلة الحزينة.... هند.

هكذا كان أبطالي الراحلون، هم كانوا الراحلين، جميعهم رحلوا، أبو حسانٍ رحل، اختار ليلــةً لم أتوقعها لرحيله فيها، وكان محقاً، اكتشفتُ أنه محقٌ في موعد رحيله، لم يكن اختياره عبثياً، رحل حين اكتشف السر الذي بحث عن حلٍ له أربعين سنة، لم أكن مخطئاً في تــوقعي حــين استنتجت أنه لم يكن يعي كلَّ ما جرى في حياته من مآسي قبل سنين طويلة، ولم أكن مخطئــاً حين قلت أنه لم يكن مجنوناً.

في ليلة رحيله بعد حلول الليل بقليلٍ، جاء إليه قريبٌ له، ناداه ليرى خالته العجوز المريضــة، كانت على مشارف الموت، الغريب أنه استجاب لطلبه وغادر مكانه المميز وتوجه مع قريبــه ليرى خالته، الغريب أكثر أنه يغادر مكانه لأول مرة دون أن يتجه إلى بيتــه منــذ ســنواتٍ طويلة، والأغرب أكثر أنه لم يعد لذلك المكان نهائياً بعد تلك المغادرة.....!

كانت خالته العجوز تعاني من المرض وتودِّع الحياة، أحسَّتْ بدنوِّ أجلها وأرادت أن تخلِّــصَ ديونها في الحياة، وكان أبو حسانٍ هو صاحب أكبر تلك الديون، جلس قــرب رأســها علــى سريرها، وأخبرته سراً لم يكن يتوقعه أحدٌ، كان هذا السر يفكُّ كلّ ألغاز بطلي التــي جلــس منتظراً حلَّها سنوات، كان يفكُّ لغز (خربطة) حياته المذهل، أرادت قبل موتها أن تميتَه الآف المرات وهي تظن أنها ستطيح بأحمالٍ قاسيةٍ عن ظهرها قبل أن تموت، ستميته بعدد اللحظات التي جلسها في مكانه طيلةَ أربعين سنة، أخبرته أنَّها سبب كلّ ما جرى له من مآسي، أخبرته أنها هي من دبَّرَ المكيدة التي قتلت أختها والدته، وقبل ذلك أفقدته زوجته وأبناءه الذين لم يرهم منذ الفراق، وأكاد أجزم أنه لن يراهم أبدا، أخبرته كذلك أنَّها هي من قتلت كلّ السعادة التــي كان يعيشها، ثم أخبرته أنها ندمت منذ اللحظة التي تفرَّقَ فيها عــن زوجتــه، وماتــت آلاف المرات منذُ كلِّ ما جرى، طلبت منه أن يسامحها ولفظتْ آخر أنفاسها، ماتت قبل أن تخبــره كيف دمَّرتْ حياته؟ كيف... كيف كيف؟ سؤالٌ ربما سألته أنا أكثر منه، كررته فــي نفســي آلاف المرات، لا أدري ما الذي دار في تفكير أبي حسانٍ في تلك الدقائق القصيرة بعد موتها؟ هل فكَّرَ يا تُرى حين عرضت عليه هذه الخالة الزواج من ابنتها أثناء اشتعال قصته مع رشيدة

ورفض هو عرضها رفضاً قاطعاً؟ هل فكر في الكره والحقد الذي عشعش في قلب الخالة بعد زواجه من رشيدة وقررت حينها مقاطعتهم؟ وربما تساءل كثيراً كيف فعلت الخالة فعلتها؟ ورضيت أن تكون هي سبب كلّ ما جرى، هل يمكن أن تحقد لهذه الدرجة؟ لا أدري بماذا تساءل أيضاً في نفسه؟ لا أدري فربما تذكر اللحظات التي حذرته فيها رشيدة من (الآخرين) قبل الفراق الأليم، هل عرف الآن من هم ؟ لا أدري بماذا فكَّر؟ فكلُّ تلكَ الأسئلةِ ظلت تخمينات في نفسي لا أكثر.

بكى أبو حسانٍ طويلاً قرب رأس خالته الميتة على السرير، بكى بكاءً مريراً وطويلاً أخرج به كلَّ الآلام والحسرات التي امتزجت مع حياته طيلة السنوات الماضية، بكى ندماً على أيام السعادة القديمة، وبكى البكاء الذي لم يكن قد بكاه على والدته بعد، نادى والدته في غمرة بكائه، نادى والدته المتوفاة من أربعين سنة وأكثر، بكى وهو يمسك يد خالته العجوز الميتة، لم يتمالك نفسه فقبَّلَ يدها وخرج باكياً، لم يعثر عليه أحدٌ من حينها، لقد قرَّرَ الرحيل، حتى أنه لم ينتظر الصباح ليرحل فيه، كان محقاً، ليلةٌ واحدةٌ جديدةٌ في القرية لم يعد لها مبرر، وأربعين سنة سابقة لهذه الليلة كانت ضرورية فعلاً، انتظر تفسير اللغز، فسَّره ورحل، الرحيل الأخير.

الرحيلُ كلمةٌ اشتركَ فيها كلّ أبطالي، أبو حسانٍ رحل، اختار ليلته التي يرحل فيها، رحل قبل أن يعرف أحدٌ أسامح خالته أم لا؟ ربما سامحها، ليس لطيبته المعروفة، بل لأنَّها كشفت له لغزاً انتظر حلَّه لسنواتٍ طوال، رغم أنها كانت هي سببُ هذا اللغز. رشيدة رحلت مبكِّراً، دون أن تفكر بالانتظار لحلِّ لغزٍ نغَّصَ عليها حياتها، استبقت الزمن ونجت بنفسها بالرحيل. هندٌ رحلت هي الأخرى إلى مكانها الخاص، بدون ألغازٍ وانتظاراتٍ قد تدمِّر حياتها. عبيرٌ سترحلُ يوماً، ربما ليس رحيلاً حقيقياً قاسياً كما رحلوا هم، لكنَّها لا بدَّ راحلة. كلهم رحلوا، وزمانهم رحل، وكلّ الأشياء رحلت، وبقي المكان شاهداً على الشخصيات التي أخرجها، شاهداً على أبطالي هؤلاء، المكان أخيراً انتصر، هزم كلّ أبطالي، هزمهم المكان، المكان في قصَّتي انتصر.

سأحدثك بأمرٍ كان يحدث لي قديماً، هذا المكان (الحارة) مَلَكَنِي وأنا طفلٌ صغيرٌ، لم أكن أعرف أيَّاً من أبطالي هؤلاء حينها، كنتُ أخرجُ إلى تلك الحارة، كانت قريبة من حارتي، أحبُّ التجوال واللعب فيها، أخرج أحياناً في صباحات البرد القارس إلى تلك الحارة، كنت وحدي دائماً، ربما كان أبطالي قد استقروا في أعماقي قبل أن أعرفهم في الواقع، وربما كان المكان يشدني إليه كي أتعرف إلى أبطالي، وربما أنا توقعت خروج أبطالي من المكان قبل أن أراهم، وربما أراد المكان تلقيني درساً لا يُنسى بأنه يستطيع أن يكون البطل الحقيقيَّ متى شاء.

لا أعرف مصير شخصياتي (المهزومة) في داخلي، لا أعرف كم ستستقر في أعماقي قبل رحيلها الأخير؟ ربما ستبقى في داخلي إلى الأبد، وربما سترحل كلَّها أو بعضها لأسبابٍ لا أعرفها، ربما سترحلُ مكرهةً لأنَّ المكانَ يريدُ أن يعطيني درساً جديداً، بإرساله شخصياتٍ جديدةٍ تملأ داخلي وكياني، لم أعد أعرف حقيقة من سيلقنني الدرس القادم... عندما يقرر المكان الرحيل أيضاً.

٢- صـــــــراعٌ مـــــــع الزمـــــــــان.

لا أدري كيف ينبغي لنا أن نتغلب على الزمان أو المكان؟ ربما لا نستطيع، اكتشـــفت مؤخراً كثيراً من الأشياء في حياتي، للزمان قوته أيضاً، ظهرت تلك القوة فـــي حيـــاتي لأول مرة، كانت قوةً جبَّارةً لا تهادن، فجأة نكتشف هذه القوة بعد أن تكون قد هزمتنا، هزم الزمان أبطالي جميعاً بعد أن انتصر على مكانهم، كم تغلَّبوا عليه قديماً! وكم اكتشفتُ أنهم أغبيـــاء! لا ينبغي على من خرج ضعيفاً مهزوماً من مكانه أن ينتظر يوماً واحداً كي يعود إليه، لن يرحمَهُ الزمان أبداً، سيدمِّر مكانه إلى الأبد، وستبقى محاولاته للعودة بعد ذلك حلماً وحكاية لن تتحقق عبر الأجيال، لأنَّ الزمان تدخَّلَ وألغى حكاية العودة والرجوع.

هكذا كانت حكاية أبي حسانٍ الراحل، صحيحٌ أنَّه حكم على نفسه بالتشرد بقرارٍ ذاتيٍّ حكـــيمٍ، لكنه حكم على نفسه أيضاً باللجوء الأبديِّ في الغربة، غربته أصبحت مجهولةً لجميـــع أهـــل قريتنا منذ صبيحة رحيله، كان مواطناً في قريتي و(مكاني) يوماً ما وأصـــبح غريبـــاً منفيـــاً، وسيبقى منفياً إلى الأبد، الزمان لن يمكّنه من العودة مطلقاً، ربما لن يقف فـــي وجهـــه بقـــوة السلاح مانعاً إياه العودة، لكنه سيدمر كلَّ أحلامه التي عاشها قديماً في مكانه، وهكـــذا فعـــلَ الزمانُ فعلته بأبي حسانٍ المشرّد، لم يعد هناك أيّ مكانٍ يعود إليه بطلي، تمَّ قهـــره والقضـــاء عليه، أصبح هناك كياناً جديداً في حارتي الجميلة، دُمِّرَتْ البيوت القديمة التي عاشت فيها تلك الحكايات الطويلة بعد أن هُجرتْ طويلاً، صار هناك ما يسمَّى بالسكان الجـــدد فـــي حـــارتي الجميلة الراحلة، البيوت القديمة التي تداعت للسقوط قد أزيلتْ الآنَ وشُيِّدَ مكانها عمرانٌ جديدٌ لسكانٍ جددٍ، لا أعرف من أين جاؤوا وكيف حصلوا على ملكيته؟ أزيلت هذه البيوت التاريخية التي كانت قبل عشرات السنين تعجُّ بالحياة، لكنَّ الغريب أنَّها أزيلت بكلِّ سهولةٍ، كأنَّ المكـــان لم يعد قادراً على الاحتمال وكان ينتظر الموت والرحيل هو الآخر، رحـــلَ المكـــانُ ليلتحـــق بسكانه الراحلين، رحل لأنه لم يجد أبا حسانٍ وأصحابه الأصليين بقربه، رحل لأنه لم يجد من يدافع عن رحيله، فسكانه صاروا مشردين مجهولي الهوية، ليتمَّ تأكيد ضياعهم الأبديّ برحيل وطنهم (مكانهم)... إلى غير رجعةٍ.

أحسستُ بنضوجٍ كبيرٍ بإحساسي بالحياة والواقع بعد هذه التغييرات الطارئة في حياة حـــارتي القديمة، أصبحت الحارة جزءاً من الماضي والذكريات، تمَّ نسيان الشواهد التـــي دلَّـــتْ علـــى

وجود حياةٍ سابقةٍ في تلك الحارة يوماً ما، اختفت الحارة القديمة رغم أنَّها استُبدلت بحياةٍ جديدةٍ قد تسمى حضارية، وعودة أبي حسانٍ أصبحت مستحيلة بامتيازٍ، لم يتبقَّ أيّ مكانٍ يمكــن أن يعودَ إليه هذا الراحل المشرد، أحسستُ أنا بخسارته الحقيقية عندما أزيلت حارته وليس عنــد رحيله رغم تأكدي من أبدية رحيلهِ، ربما لأنني اكتشفتُ أنَّ كلَّ ما بقي من أبي حسانٍ قد رحل الآن، فأخيراً تعرَّض المكان للهزيمة الحقيقية في قصَّتي، وأثبت الزمانُ أنه لا بدَّ منتصــراً... وإن طالت المدة.

لم يهزم الزمان أبا حسانٍ وحده، فقد هزم كلَّ رحلتي وتجاربي المتبقية أيضاً، رحلــت عبيــرُ أخيراً بفعل تأثيرات الزمان هي الأخرى، بعد تأخيراتٍ طويلة استنفذت فيها أيّ فرصة لأكون معها، أجبرها الزمانُ على الرحيل الذي اعتقدتُ أنه جاء متأخِّراً جداً، لكنَّــهُ لــم يــؤثر فــي تفاصيل حياتي لأنني أيضاً قررتُ رحيلها، منذُ وجدتني صامتاً منتظراً، كأنني انتظرُ رحيلهــا وأحثّها بصمتٍ عليه، لم أرغب بتكرار تجربة الرحيل القاسية لهندٍ فرحلت عبير رحيلاً بسيطاً، تدخلت خبرتي في رحيلها هذه المرة، كانت خسارةً كبيرةً مجدداً، لكنني تحملتُ وصبرتُ على فراقها الأبديِّ هي الأخرى، رغم الفرق بين رحيل هندٍ ورحيل عبيرَ في كلِّ شيءٍ، المهــمُ أنَّ الزمانَ بدأ يقدِّمُ لي الدروس القوية التي ما كاد يفعلها سابقاً، ناهيك عن الأحلام الجديدة التــي أظهرها لي الزمان من خفاياه، والأمكنة الجميلة التي عاشت هي الأخرى في ذاكرتي قبــل أن تصبحَ ذكريات.

كان ذلك في مرحلةٍ جديدةٍ من حياتي اتَّخذتْ طابعاً ممتعاً، فقد أصبحتُ مُدَرِّســاً فــي قريــةٍ مجاورةٍ لقريتي، مكانٌ جديدٌ أريدَ ليَ أن أخوض فيه معركةً متجددةً مع الزمان، رحلة جديــدة من الأحداث أرادت أن تغسل ذلك الماضي المنهك وقصة أبي حسان والراحلتين هند وعبيــر، كانت تلك الأسابيع القليلة التي مكثتها في ذلك المكان أجمل أسابيع حياتي، هي بالتأكيد أجمــل من أسابيع أبي حسانٍ التي تتبعته فيها بنظراتي، كانت أسابيعٌ خاليةٌ من المؤامراتِ والأحقــاد مثلما كانت أسابيعُ أبي حسانٍ البريئة، كنتُ معلماً لطلبةٍ في المرحلة الأساسية لا يعرفــون إلا لغة البراءة والطيبة، وليس لهم أحلام سوى الحياة التي لا يعرفون فيها إلا الحــب والحنــان، كوَّنتُ هناك أجمل العلاقات مع زملائي المدرسين، كانت لحظاتٌ رائعةٌ كما أحلامي مع هنــدٍ وعبيرَ وانتظاراتي المنعشة لأبي حسانٍ، احتملت كلَّ معاني الاشتياق والحب البريء الصافي. خلال تلك الأسابيع تطورت علاقتي مع زملاء مهنتي وتمركزت صوبَ زميل شــاب يــدعى خالداً، كان شاباً خلوقاً طيباً أحببته من أول سلامٍ جرى بيننا، كأنني قــررتُ فــي داخلــي أن أشركه في أحلامي وواقعي، وكأنَّ ذاكرتي قررت أن يكون خالد بطلاً فيها لا يزولُ، ربما لأنه

كان حالماً مثلي، كنا نحلمُ معاً ونعيشُ أجمل اللحظات مع طلبتنا الصغار، لم يكن شيء ينبئ بأية منغصاتٍ، على عكس ما جرى بعد ذلك من قتلٍ للأحلام وانفجارٍ غير منقطعٍ للحسرة والألم.

كنتُ أفكرُ طويلاً في مأساة بطلي الراحل والمنسيِّ أبي حسانٍ الذي صار حكايةً من حكاياتي الكثيرة، كان عملاقاً يأبى الرحيل من داخلي طوال مراحل حياتي الآتية، أنا لن أنساه لأنه أصبح في داخلي فكرة لا تحتملُ التبديل رغم أنه لن يعودَ أبداً، كالموتى كان بطلي مشرداً وبعيداً، فَقَدَ عنوانهُ الأخير بهدم مكانه وهويته التي ما كان ينبغي له تركها رغم كلّ آلامه المأساوية، لن يتمكن بطلي الراحل من العودة مطلقاً، لأنَّ مكانه المميز أصبح أمكنةً جديدةً يمتلكها أناسٌ آخرون ربما لا يحق لهم امتلاك المكان، لكنهم امتلكوه لأنَّ صاحبَه الحقيقيّ أصبح راحلاً مجهولاً، لن يحصلوا (بالتأكيد) على شرعية وجودهم، لكنَّهم موجودون، ربما في قصَّتي فقط، وربما في واقعي كلِّه، وربما أبد الدهر باقون، لكنني لن أعطيهم شرعية في قصتي مهما فعل الزمان بي، ومهما أعطاهم الزمان من حقوقٍ ليست لهم، لا أدري من سيستعيد منهم هذا المكان إذا بقي أصحابه مختفين؟ وهذا حالهم...

المهمُّ أنَّ أحلامي القديمة تغيرت كثيراً بفعل هذا البطل الجديد، صارت أحلامي تتجه إلى مكانٍ جديدٍ لأوَّل مرةٍ في حياتي، غادرتُ الحارةَ التي تركت فيها جزءاً من تجاربي في الحياة لأنَّ شخصياتي لم تعد موجودة هناك، حتى أطلالهم باتت تختفي بفعل هذا البطل القاسي، بقي بعضٌ من آثار هندٍ وعبيرَ التي ما انفكت تلاحقني بعباراتٍ مؤلمة، تشعرني دوماً أنني لم أتخذ القرار الصواب حين سمحتُ لتجربة هندٍ أن تتكرر مع عبيرَ، كان قراراً خاطئاً ومؤلماً اتُّخِذَ وانتهى أمره، كان من الواجب أن أمنع رحيل هندٍ قبل أن أسمح برحيل عبيرَ، هكذا تصورت مراراً، وبقيت آثارهما الجميلة التي أحببتها وعشقتها كثيراً، حتى لو كانت آثاراً ماديةً تافهةً بالنسبة لغيري، كانت في قلبي أطلالاً مقدسةً بحجم قداسة حبِّي للراحلتين الجميلتين، أشعرُ بنبض قلبي حين أحَدِّقُ في شباك منزلهما، أو حين أرى جزءاً من الباب الذي طالما تمنيتُ أن أدلف منه إلى حلمٍ صار الآن مستحيلاً... ومستحيلاً جداً.

مكانٌ جديدٌ وغير متوقع صار يعيش في أمنياتي، مكان سجّل في داخلي لأول مرة بعد تلك الحارة الرائعة، ليست كل الأمكنة التي يأخذنا الزمان إليها تسجّل في داخلنا بالتأكيد، بعض الأمكنة تشكل لنا حالة من الصراع مع كل أحلامنا وتسجّل في داخلنا كبطاقة رابحة في لعبة الحظ، كان ذلك المكان الجديد عبارة عن مدرسة في قريةٍ خارج حدود قريتي، خرجت صراعاتي مع الزمان إلى خارج حدود المكان الذي عشقت، أخرجني الزمان إلى واقعٍ آخر

جديد لم يكن في دائرة توقعاتي وحساباتي، بدأت أحلامي تنمو وتكبر في تلك المدرسة، كانت أجمل اللحظات، لا مكان للغدر والأحقاد التي تواجدت في صراعي مع حكايا الحارة، معاملة هؤلاء الأطفال لا تحتملُ سوى البراءة، حتى الزملاء كانوا بريئين أيضاً، فمهنتي تلك تعطي أصحابها دروساً في الأخلاق والبراءة قلَّ نظيرها، وكان صديقي الجديد خالد معلماً مثلي، تقاربت رؤانا عن الحياة وأحلامنا كانت أجمل الأحلام، حدَّثني كثيراً عن حكايته مع الواقع وصراعاته مع المستحيل، وأنا حدثته عن تفاصيل حياتي وأحلامي في واقعٍ مليءٍ بالأمنيات، حدثته عن صراعاتي مع المكان وانتصارات الزمان عليَّ وعلى أبطالي في تلك الحكاية المريرة، حدثته عن هندٍ وعن عبيرَ أيضاً ورحيلهما عن المكان، وقصصتُ عليه أسطورة الرحيل المؤلم لأبي حسانٍ الذي صار عنواناً للنسيان، وحدَّثني هو عن حبه المتَّقد لسنوات، وصراعه مع الزمان الذي يرفض الرضوخ له ويحقق أحلامه المعلّقة، كانت أحلامنا معلّقة مع وقف التنفيذ، وتقاربت حكاياتنا وازدادت أمنياتنا في هذه المرحلة الجديدة من حياتنا، لنشكِّلَ ثنائياً متَّحداً لهزيمةِ بطل حكاوينا المشترك (الزمان) الذي يجب أن يحقِّق أحلامَنا فوراً ودون أيِّ انتظار، قررنا أن نعملَ معاً لهزيمته، فلدينا خبرةٌ واسعةٌ لمواجهة هذا العدوِّ الشرس، قررنا هزيمته وخُضنا معركتنا معه وكِدنا ننتصر، بل رفعنا شارة النصر، قبل أن نسقطَ صرعى أمام هذا العملاق الذي يأبى الهزيمة، ونال من أحلامنا في قسوةٍ قاتلةٍ.

شجعتُ صديقي خالداً لخطبة فتاته، فهي جولتنا الأولى في هزيمة عدوِّنا المفترض، فالدرس الذي تعلمته من أحلامي السابقة بدأتُ بتطبيقه مع صديقي الحبيب خالد، الخطأ الفادح الذي شعرتُ به مع هندٍ وكررته مع عبيرَ بات تجربةً يجبُ أن ينتبه إليها صديقيَ الحبيب، كي لا تضيع الأحلام بفعل عدوٍّ قررنا هزيمته، فصديقي صار يدرك حجم تجاربي المؤلمة في الحياة بأدقِّ تفاصيلها، وأصرَّ أن يبدأ بتطبيق خطةٍ مشتركةٍ أعددناها لهزيمة عدونا، وقررتُ أن أحذو حذو صديقي في قهر الزمان بعد أن يُهزمَ عدونا شرَّ هزيمة، لننال منه بشكلٍ نهائيٍّ، أسابيعٌ رائعةٌ عشناها معاً، أسابيعٌ لم تطُل، ولن تتكرر أبداً.

امتلك بعضُ الأطفال الذي ندرِّسهم أنا وصديقي في قلوبنا حباً عظمياً، بعضهم لذكائهم المُتَّقد وفطنتهم، وبعضهم الآخر لحلاوة تصرفاتهم وخِفَّةُ ظلِّهم، وبعضهم صرنا نتمنى أن نُرزقَ بأبناءَ مثلهم في المستقبل، حب الأطفال هو حب المستقبل والأمل بالتغيير والنظرة الثاقبة نحو الحرية والانطلاق، كنتُ وصديقي نمتلك إحساساً مرهفاً تجاه الأطفال، أحببناهم بصدق، وصرنا نهرول صوب صفوف أطفالنا الأحبة لأننا نشتاق تدريسهم كثيراً، كانت تجربتي الأولى في التدريس وكانت مهنةً رائعةً، بدأت أحلامي القديمة تضعف وتتلاشى لأن أحلاماً

جديدةً بدأت تتسلَّلُ إلى واقعي، أحببتُ ذلك لأنني امتلكتُ التجربة التي سأعرف بها كيف أتعامل في حياتي المقبلة. وتحقَّقَ الحلمُ الكبير الذي تمنيته لصديقي بكل يسرٍ وسهولة، نجح حلمه الكبير الذي بات حلماً لي أنا أيضاً، خطب صديقي تلك الفتاة التي يحب، اعتبرت نجاحه جولةً ناجحةً ضد عدونا وقررت تنظيم جولتي أنا الآخر، لكنني كنت أؤجلها لمرحلةٍ قادمةٍ كي لا نغفل عن نجاحنا الأول، وبدأنا نخطط معاً للخطوة الذكية الثانية، حيث لم يمهلنا الوقت طويلاً.... بشكلٍ أكيدٍ.

كان زواج صديقي قد اقترب، حددناه في عطلة عيد الفطر، لم يكن صديقي يريد أن ينتظر أكثر، فهو يريد لأحلامه أن تستمرَّ، ونريد لخطتنا أن تنجح سريعاً، حتى الأطفال الأبرياء فرحوا باقتراب موعد زفاف صديقي، أحسستُ أنا بفرحٍ شديدٍ لفرحهم، خاصةً عندما طلبوا مني مراراً أن ألتحق بصديقي خالد، ووعدهم أنني سألتحق به قريباً وكان ذلك حقيقياً، الأمرُ الذي تناسيته بعد ذلك... حين سارت الرياح بما لم تشته السفن.

لم تلبث كل أحلامي أن تبخرت بين ليلةٍ وضحاها، وذلك بعد أسابيع من الفرح والسرور في تلك المدرسة الرائعة وبين زملاءٍ وأصدقاءٍ وأحبةٍ قلَّ نظيرهم، ومع لحظات انتظاري لزواج صديقي، والجولة الجديدة المنتظرة ضد الزمان، تبخرت أحلامي كلها حين أُبْلِغْتُ بقرار نقلي لمدرسةٍ أخرى في قريةٍ أخرى مجاورة، كان خبراً وقع كصاعقةٍ على مسامعي، أبلغتُ أيضاً من مكتب التربية والتعليم بأنْ يكون اليوم التالي هو اليوم الأخير لي في المدرسة، لتضيع كل الأيام الجميلة والأحلام الوردية مع صديقي وطلبتي الصغار الأبرياء، وكسب الزمانُ جولةً ما توقعتُ أن يكسبها بهذا الأسلوب البسيط والمنمّق، كسب جولته مع إصرارٍ شديدٍ اشتعل فينا على الردِّ الفوريّ والعاجل... ضدَّ عدوٍ كان أعنفَ وأقوى منا بكثير.

كنتُ صديقاً لطلبتي الصغار قبل أن أكون معلماً لهم، أحبُّوني أكثر من حبهم لآبائهم، هذا ما اكتشفته لاحقاً، وهذا ما أخبرني به بعض آباء هؤلاء الطلبة بعد فراقي الطويل عنهم، وهذا ما تحقق أيضاً من مشاهد البكاء والألم التي عانى منها طلبتي حين دخلت إلى صفوفهم وأخبرتهم أنني في يومي الأخير في مدرستهم، نصائحَ طفولية وُجِّهَتْ لي من طلبتي الصغار، أحدهم يخبرني أنه لن يأتي للمدرسة بعد ذهابي، وآخر نصحني أن أحافظ على نفسي من المرض، وثالث يريد أن ينتقل معي إلى المدرسة الجديدة، وأشياء أخرى كثيرة قتلتني قبل أن يقتلني فراقي لهم، ولمدرستهم الحبيبة.

صديقي المتألم لم يستطع التفوه بأيّة كلمةٍ حين جلسنا جلستنا الأخيرة تحت شجرة كينا ضخمة في فِناء المدرسة، لم يقلْ شيئاً حين عرف أنها الجلسة الأخيرة لي معه في هذه المدرسة، تألَّمَ وبدا شاحباً، لكننا خضنا حواراً أشبه بحوار المشاهد الختامية في مسرحيات القرن التاسع عشر، كان الحوارُ مؤكِّداً ضرورة زيارتي للمدرسة مراراً لأتابع أحوالها وأحوال صديقي وطلبتي، وأن أحضر عرس هذا الصديق الحبيب في فترة العيد، العيد الذي شكل هاجساً لي بعد ذلك، العرس كان جولةً جديدةً ضد عدوِّنا المشترك كان يجب أن تنظم سريعاً قبل أن يضربنا من جديد.

اعترف صديقي اعترافات ما قبل الوداع تحت شجرة الكينا، قال لي أنه يتمنى أن يرزق بأبناءَ يشبهون هؤلاء الأطفال الذين نحبهم في المدرسة، يتمنى أن يكون بعض هؤلاء الأطفال من أبنائه، بل يشعر بهذا الشعور الجميل كثيراً، تمنى أن يحمل صورهم في جيبه حتى يظلّ معهم، شعرت برغبة عارمة في البكاء على شلال الحنين الذي أخذ يتدفق من صديقي خالد، لقد كان أكثر حساسية مني وأكثر تأثرا بهؤلاء الأطفال، ذرف صديقي دموعاً وسمَّى لي مجموعةً من الطلبة، وعدني أن يسمي أولاده بأسمائهم، حفظتها عن ظهر قلبٍ وما كدت أنساها، ودونتها للزمن: سليم وأمجد ومحمد وعبد اللطيف....، وأوصاني أن هذا الأمر بات عهداً عندي لو قُدِّرَ له الموت، بكيتُ على كلماته وطمأنته أن فراقنا المقبل لن يطول، وذرفت دموعاً ألماً للفراق الذي صار مكرراً في حياتي كثيراً، لم أعرف سبباً مُحَدَّداً لبكائه، هل يبكي لفراقي أم حباً في هؤلاء الأطفال؟ أم أنه بكى لأننا لن نلتقيَ مجدداً لنحلم؟ أو لربما بكى لأنه لن يرى أطفالاً له بتاتاً؟ لا أدري لماذا بكى هو؟ لكنني أعرفُ لماذا بكيتُ أنا مراراً بعد ذلك.

كان الوداع حاراً وحميمياً، أسابيعُ قليلةٌ عشتها في تلك المدرسة تركت أثراً في نفسي عميقاً، أسابيعُ ستعيشُ معي لسنواتٍ ولن تمضي كما مضى أبو حسانٍ أخيراً، أسابيعُ عشتُ على ذكراها طويلاً ورسمتُ نظريات وأفكار من تفاصيلها، أسابيعُ لن تتكرَّرَ مُطلقاً، لأنَّ الرحيلَ أصبح مشتركاً مع صديقي الحبيب، أنا إن رجعتُ إلى هناك يوماً ما... فصديقي (بالتأكيد) لن يرجع.

لم أتصور أبداً أن تأتي مرحلة أكثر إيلاماً من وداعِ أحبَّتي في مدرستي تلك، لم أتخيل أن خطوة الزمان في مصادرة مكاني العزيز مني وحرماني منه ستتحقق... ولأزمانٍ طويلةٍ، وكَسْبُ الزمان لهذه الجولة كانت مقدمةً للضربة القاضية التي أكَّدَتْ هزيمتي وحدي أمام الزمان، فصديقي تلقَّى ما هو أقوى من الهزيمة، بل تلقى الهزيمةَ الأبدية. وَدَّعْتُهُم جميعاً على أمل لقاءٍ قريبٍ يجمعني بأحبَّتي، وعدتهم أنني لن أبتعد عنهم طويلاً وسأتابعهم عن قربٍ دوماً،

وعدتُّهم أنني سأعود قريباً لأحضانهم الدافئة، وعداً لم أستطع الوفاء به حتى الآن.... وربما لن أستطيع.

قررتُ أخيراً تنفيذ وعدي لصديقي وأطفالي الصغار، لا أدري كيف قررت ذلك، قررت الزواج! استغربت من قراري المفاجئ هذا، فلماذا لم أقرر في الماضي عندما كان القرار ضرورياً؟ لماذا قررت الآن بعد فقدان الراحلتين اللتين لم أستطع منع زواجهما؟ لقد قررت الآن بكلِّ سهولةٍ، ربما هناك علاقة لتجربة صديقي الناجحة بالزواج مع تفكيري الجديد الغريب، وربما أن هزيمة الزمان المفترضة حتى الآن ستتوِّجُ قراراتي القوية التي كانت سَتُتَخَذُ قريباً وقريباً جداً، وربما الأطفال الذين امتلكوا قلبي قد حثُّوني على هذا التفكير، فأحلامُ صديقي استفزتني، وربما أن الأبطال الجدد هؤلاء الصغار قد تفوقوا على الأبطال السابقين الذين سكنوني قديماً (ولا يزالون!)، كم حقدتُ على الزمان الذي أخَّرَ ظهور هؤلاء الأبطال عن مرحلة هندٍ وعبير! بالطبع ستختلفُ قراراتي حينذاك.

انتصرَ المكانُ في حارتي قبل أن يُهزمَ هنا الآن، وسأُهزمُ أنا من الزمان رغم أنني كنت قادراً على التوفيق بين تلك الأمكنة المبعثرة في حياتي؛ لو عرفتُ مخططاته الخبيثة، الزمانُ فرض موقفه علي وأراد أن يثبت للمكان أنه سيعيدني لنفس اللعبة مجدداً، فالمكان انتصر في مرحلة من حياتي وفرض شخصياته علي طويلاً. أما الزمان فقد فرض عليَّ مكاناً جديداً وأحداثاً وشخصياتٍ ومواقف وأحلاماً، وفرض قراراته الجديدة بإنهاء صراعي معه بالتدخل لوقف مسار حياتي في كل مكان لا يرديني فيه، وعلى كلِّ شخصٍ قد يرى أنه يشكل معي خطراً عليه وعلى مخططاته بعيدة المدى.

- عندي خبر سيِّء، صاحبك الأستاذ خالد... مات.

كانت هذه أسوأ مكالمة هاتفية سمعتها في حياتي، وربما أقصرها، فأنا لم أرد بحرفٍ واحدٍ، لم أكن أستطيع الكلام، كان الخبر المنقول إلي يمَثّل صدمةً حقيقيةً، والراحل كان غالياً جداً على وجداني، وتوقيت رحيله صدمني فعلاً، فعيدُ الأضحى سيكون في الغد، كنت أحلم بذلك العيد كطفلٍ صغيرٍ، كنتُ أطير في بحور الليل والذكريات ليلة العيد، تذكرت عرس صديقي الراحل الذي كان قبل شهرين، أفكارٌ حزينةٌ تداخلت في نفسي وماتت كل الأحلام بعد هذه المكالمة، قد أعترفُ بالهزيمة الآن وقد أوجل الاعتراف لحين استيعاب الصدمة، المهم أنني سأعترف بالهزيمة، ولكن وحدي سأعلن هذا الاعتراف، فلم يعد لديَّ شريكٌ يحارب معي هذا العدو ليعترف بالهزيمة معي، لن يستطيع الاعتراف، لأنَّ انعدام قدرته على الاعتراف

كان هزيمةً مؤلمةً، بل جولاتنا التي ربحناها سابقاً أصبحت محاولات فارغة ليس لها قيمة، تدخَّل الزمان وفرض كل شيء، فرض الرحيل مجدداً، فرضه سابقاً عليَّ وكان رحيلاً عادياً، أما وقد فرضه الآن بهذه القسوة فقد كان الانتصار الكبير عليَّ، لم أفعل شيئاً في هذه الليلة الأليمة بعد استدعاء الذكريات الجميلة سوى تدوين تاريخ المكالمة الهاتفية المؤلمة، وكان التاريخُ مُسْتَفِزّاً: 2007/12/11 الساعة ١١.١٢ ليلاً .

صديقي الراحل مرض قبل يومين من هذا الرحيل المؤلم بنزلة بردٍ عاديةٍ، تمازحنا خلال مكالمة هاتفية وطلبتُ منه أن يكتفي بمداعبة زوجته في هذا البرد الشديد، البرد الذي خطف مني صديقي الحبيب ولم يمهله ليرى ابناً يحبه كحب الأطفال الذين عشقناهم في المدرسة، قلوبنا كانت تغني بالانتصار الأكيد على ذلك العدوِّ المتوحش الذي يحاربنا، مكالماتٌ هاتفيةٌ شتَّانَ بين واحدةٍ وأخرى، ممازحاتٌ رائعةٌ مع صديقي وأخبارٌ تُنقلُ لي عن رحيل الصديق الذي ضاعت معه كل ذكرياتي الجميلة وأمنياتي في الحياة، مكالمةٌ قصيرةٌ مع صديقي لن تتكرر، ومكالمةٌ أقصر أنبأتني برحيله الأخير، رحل صديقي قبل أن أفي بوعدي له بزيارته في مدرستنا الحبيبة والجلوس تحت شجرة الكينا من جديد، المكان الذي تعاهدنا أن نجلس فيه لنقرر خططنا الجديدة في محاربة عدوِّنا ونعيد الذكريات دون أيِّ حسابٍ للزمن، مكانٌ مميزٌ لم يمنعنا مطره أو تثنينا رياحه الخريفية عن التخطيط فيه لمواجهة الزمان، لكنَّ الرحيل غيَّرَ كلَّ الحساباتِ، رحيلٌ تقرَّرَ بعده أن المكان أصبح ممنوعاً عليَّ مثلما أصبح مكان أبي حسانٍ ممنوعاً عليه بعد تلك الليلة المشؤومة، تقاطعت توجُّهاتي مع توجهات أبي حسانٍ المشرَّد المجهول، مكاني المنتظر صار فكرةً مستحيلةً لا تقبل المساومة، ومكانه صار مفقوداً، مكانه صار (اللامكان)، صرتُ وإيَّاه كمهجَّرين ضائعين، هو مهجرٌ من وطنه المفقود بلا عودةٍ، وأنا مهجرٌ من اللاوطن الذي كان عندي وطناً بديلاً، وطنٌ بديلٌ ممنوعٌ عليَّ أن أعيش فيه رغم حبي وشوقي إليه، وطنٌ كنت سألتقي فيه مع أحبَّتي، ولن أجرؤ أن أزوره الآنَ لأنني فقدتُ مواطنتي فيه... بفقدان أحبتي.

ما أقسى ما يعانيه المرءُ في هذه الحياة من لحظاتِ الفراق الأبدية! يعاني الإنسان كثيراً في حياته تجعل منه بطلاً أقوى من كلِّ عناصر حكايته، قوة الاحتمال وحدها كانت انتصاراً، ناهيك عن انتصاراتٍ أخرى تحقَّقت لي أشعرتني بفخرٍ وأنا أتذكر صديقي الحبيب الراحل. الرحيل في حكايتي كان مكرَّراً ومؤلماً، لكنَّ رحيل صديقي خالد هدَّني، لا أدري لماذا يحاربني الزمان بقوةٍ ولا يمهلني طويلاً؟ بالأمس كسب جولةً وأبعدني عن المكان الذي أرسلني إليه، هو اختار مكاني الجديد وهو الذي أبعدني عنه، ربما حين رآني أكوِّنُ أحلاماً قد

تعرضه لهزيمة، وتجعلني أستفيد من تجاربي السابقة في المكان القديم الذي عَشِقْتُ، المكان الذي دَمَّرَهُ الزمان كي يحرم أصحابه منه ويحرمني من بقايا آثارٍ تدلُّ على إرثنا التاريخيِّ معاً، وعنواننا الوحيد أنا وأبي حسانٍ وكلُّ أبطالي القدماء، وعندما تَشَبَّثْتُ بحلمٍ للِّقاءِ مجدداً في مكاني البديل مع أحبائي وصديقي، عمل على قتل الحلم وحرمني ذلك المكان، أمَّا وقد رحل هذا الصديق فقد تلاشى الأملُ بعودتي للمكان، لينتصر الزمان... مرةً أخرى.

ما أغربَ حديثَ صديقي قبيل رحيله! لقد كان حديثه سيفاً مسلَّطاً على أحلامي، كان مفرحاً محزناً في ذات الوقت، كشف لي مخططاته المفرحة التي باتت وصايا محزنة يجب عليَّ تنفيذها على الفور، كان صديقي قد أخبرني خلال مكالمته التاريخية القصيرة قبيل رحيله بحمل زوجته، مما زاد في فرحي وسروري، وذكرته بانتصارٍ جديدٍ نحقِّقُهُ على الزمان بعد انتصار زواجه، ذكَّرته حينها ممازحاً باسم المولود الذي سيسميه لولده وظننت أن أحلامه قد تغيرت عندما اقتربت لحظة الحقيقية، فأكَّدَ لي أنه على وعده باقٍ، وأنه يتمنَّى أن يكون مولوده ذكراً ليسميه بأحد عصافير مدرستنا الذين نحبهم كثيراً، وأقسمَ عليَّ أن أحدِّدَ اسماً لمولوده من أسماء هؤلاء الأطفال، ووعدته أن أفعل في حينه، لكنني لم أتخيل أن أفعلَ ذلك في غيابه، أصدر خلال المكالمة تلك وصيَّته المؤلمة، بأن أسمي ولده حال إصابته بمكروه، الأمر الذي طلبت منه عدم تكراره بتاتاً، تعاهدنا على اللقاء في تلك المدرسة فور انقضاء إجازة عيد الأضحى، العيد الذي لم يكمله، مثلما لم يمهله الزمان ليكمل فرحته برؤية طفله المنتظر، العيد الذي صار عنواناً للرحيل... رحيله الأبديُّ الطويل.

خصَّصَ الزمان موعداً لانتصاره أكثر إيلاماً من أيِّ موعدٍ آخر، كان عنوانه قتل كلّ فرحة كانت قد تسلَّلت إلى قلبي كي أنحني للخسارة الأبدية، الأمر الذي أوشك أن يحدث حين قررتُ الاستسلام لهذا البطل الذي أثبت قسوته الشديدة، لكنني أَجَّلْتُ الأمر كي أنهي كل الوصايا التي لا تزالُ في عنقي لصديقي الحبيب الراحل، وانقضى العيدُ المؤلمُ بفراق صديقي الأبديّ، وقضيتُ وقتي أفكِّر في الأحلام التي عشتها مع ذلك الصديق، تذكرتُ كيف بدأنا ننتصر رغم فراقنا العاديّ البسيط؟ وكيف تطور الموقفُ إلى فراقٍ أبديٍّ لا مجال فيه لإعادة صياغة أي حلم والتفكير بأية جولةٍ من جولاتنا مع الزمان؟ فقد ضَرَبَ عدوّنا ضربته الكبرى وانتهى الأمر بشكلٍ كاملٍ، تذكرت مكالمته القصيرة التي ما كانت لتجري إلا لنقل صلاحيات كبيرةٍ لي من صديقي المودِّع، مكالمةٌ قصيرةٌ قِصَرَ مؤتمرٍ صحفيٍّ تنحَّى فيه زعيمٌ تاريخيٌّ بسبب ثورةٍ شعبيةٍ عارمةٍ، مكالمةٌ نَقَلَتْ لي مهمةً خطيرةً عليَّ تنفيذها فور التنحي الإجباري لصديقي

الحبيب، مهمةٌ شابهت إلى حدٍّ ما نقل صلاحيات الزعيم الذي أُطِيحَ به لأقرب مقربيه الذي يعاني من صدمة ثورة الزمان...على كليهما.

قررتُ إبلاغ وصية صديقي الراحل إلى أهله، صارت وصيته في عنقي، احترتُ في الاختيار واخترتُ اسم عبد اللطيف، الطفل الذي أحبَّه خالدٌ كثيراً، تمنيت أن يكون ولده ذكراً وغادرتُ منزل صديقي الراحل للمرة الأخيرة معاهداً نفسي عدم نسيانه ما حييت، غادرت وفي داخلي قرار ألا أعود لمدرسة صديقي مطلقاً، وألَّا أرى شجرة الكينا المتعالية، رغم احتراقي شوقاً لأحبائي الصِّغار هناك، ولشجرةٍ عزيزةٍ حملت ذكرياتنا في جِذعها المُعَمَّرِ، مدرسة لم أزرها مطلقاً منذ جلستي مع صديقي تحت تلك الشجرة، وقراري ألَّا أزورها مطلقاً، تمنيتُ لأحبّتي الصغار حياةً هانئةً ومستقبلاً زاهراً، وقررتُ أن يكونَ خالدٌ اسماً يسكن أعماقي كما سكنه غيره ممن تركوا في حياتي بصمة لا تزولُ.

شيءٌ بسيطٌ أعاد ليَ الأملَ والحلمَ والذكرياتِ مجدَّداً، لا أدري كيف مَرَّ على الزمان دون أن ينتبه إليه؟ جولةُ انتصارٍ غريبةٍ جرتْ بتدخُّلِ أبعادٍ كثيرةٍ أقوى من الزمان، أضاءت في قلبي بعضَ الأمل، وجعلت حلمي يصحو من جديدٍ من نومةٍ كانت كليلٍ سرمديٍّ طويلٍ، جلستُ في مقهًى صغيرٍ في مدينة نابلُس بعد أقلَّ من ساعةٍ على إبلاغ وصية صديقي العزيز الراحل إلى أهله، بالكاد رشفتُ رشفةً من فنجان قهوةٍ طلبته سريعاً، وأفكاري تتداخل بين الوصية الغريبة التي صدرتْ من صديقي في وقتٍ مفاجئٍ قبيل رحيله، وبين تمنياتي بجنس المولود الذي سيولد بعد عدة أشهرٍ لصديقي الراحل، سمعتُ صوتاً يناديني، لم أنتبه للصَّوتِ، ولكنْ مع سماعي له تذكرتُ شجرة الكينا في مدرستي الحبيبة، وقفزتْ لذهني صورة صديقي الراحل، والحارة المفقودة التي أحببتها في قريتي، حارةُ أبي حسانٍ المشرَّد، لحظاتٌ قصيرةٌ بين صدور الصوت وتحديد مصدره كانت أزماناً طويلةً جداً، حدَّدَتْ لي كلَّ صراعاتي مع الزمان والمكان والشخصياتِ والمواقف، ورياحُ الخريفِ التي تحرِّكُ أغصان شجرة الكينا، والكثير من الأحداثِ راودتني قبل أن أحدِّدَ صاحب الصوت الذي أحسستُ معه بانتصارٍ متأخرٍ، قد يعيدني لخيوط اللعبة من جديدٍ.

٣- حلمٌ يولد... مع وداع الخريف!

مرت الأيام طويلة بعد رحيل خالدٍ صديقيَ الحالم وصار في قلبي جرحٌ لا يندمل، كان الزمان مؤلماً حقاً، لقد قطف زهوراً لي تعبتُ في تعهدها، صديقي وشريك أحلامي قد رحل، لكنَّه ترك مولوداً منتظراً حائراً تمنَّى لو سمَّاه بنفسه. المكان الجديد الذي أحببته أجبرتُ على الرحيل عنه وتركه (إلى الأبد!)، لأتركَ أطفالاً لم أشبع من حبهم بتاتاً، كم تمنيتُ لو مكثت في ذلك المكان أكثر من مكوث أبي حسانٍ في مكانه المميز القديم! استغربت من لعبة الزمان، كيف فُسِّرَ الرحيلُ في حياتي؟ حياتي صارت عبارة عن رحيلٍ، المكان كله يرحل أحياناً، الحارةُ قد رحلت هي الأخرى وصارت حارة جديدة لأناسٍ أغرابٍ. الشخصياتُ رحلت من موطنها الأصليِّ، ربما لم تكن مكرهةً على الرحيل، وربما رحلت خائفةً بائسةً، لكنَّ أحداً لم يُجْبِرْها على الرحيل، حتى لو أجبرت، ما كان ينبغي لها الرحيل، كان عليها أن تُفَضِّلَ البقاءَ مع الموت على الرحيل والانهزام، لكنني أعتقدُ أنها لم تكن قد خاضت التجربة ولم تعرف قيمة الخطأ الذي ارتكبته برحيلها، تعلمتُ الآن درساً في الصُّمودِ لن أنساه أبداً، درسٌ عنوانه البقاء وعدم الانهزام، فقد تعلَّمتُ من هؤلاء المشرَّدين كثيراً... رغم رحيلي الأخير.

لقد حققتُ انتصاراً على الزَّمان بطريقته التي لعبها معي، هذا ما خُيِّلَ إليَّ عندما تعرفتُ على صاحب الصوت المنادي داخل المقهى الصغير في مدينة نابلس، رغم ضربات عدوي المؤلمة والموجعة لقلبي، عدتُ مع صوته لبداية معركتنا الطويلة، لقد ضُرب الزمان بنفس السِّلاح

الذي استخدمه تجاهي بدون أيةِ حلولٍ قد يتمكن من إيجادها أمام صحوة أحلامي المفاجئة، فمن بين رمادٍ من الأحزان والآلام خرج عملاقٌ من الذكريات المجنونة يضربُ كلَّ الأزمان، خرجت كلّ أحلامي وأمنياتي من بحر خوفها الساكنة فيه كمارد بلغ عنان السماء، بُعِثَتْ أخيراً من مرقدها الذي ظننته مرقداً أبدياً.

استغربتُ من هذا الحدث متعدِّد التفسيرات والتحدِّيات الذي ولد ليدمج بين الزمان والمكان، وتحدِّيات الشخصية التي كادت تنهارُ وتعلن الهزيمة، لتوجِّه رسالةً لكل الأشياء بأننا لا نزال نعيش، وموجودين، وقادرين على الصمود أمام رحيل الأمكنة وألعاب الأزمنة، وهذا يكفي حلماً يُحْمَلُ بين ثنايانا ينتظر التحقيق، وينتظرُ الانتصار على كل التحدِّيات والأعداء التي ما فتئتْ تسرق منَّا كل غالٍ ونفيسٍ.

كان عبدُ اللطيفِ قد ظهر مجدَّداً، فجأةً ظهرَ، في مكانٍ محايدٍ وبعيد عن أمكنتي كلها، وفي زمنٍ خطيرٍ كاد يعصفُ بأحلامي، الزمن الذي كِدْتُ أعلن فيه هزيمتي الأخيرة أمام الزمان، لكنَّ بطل الإنقاذ الطفوليّ قد ظهر، لقد كان عبدُ اللطيفِ هو صاحب الصوت الذي سمعت، فعصف بقلبي صوته، وأدخلني إلى أفكارٍ جميلةٍ كلها مشاعر مليئة بالذكريات الشفافة، أفكارٌ جديدةٌ وطاقاتٌ تتمحورُ حول صمودي أمام الزمان... برغم الأحزان المتلاحقة، لقد عاد طفل الأحلام المنتظر، عاد ليهزم معي كل الهزائم التي لحقت بي، قفز صوته لذهني مجدداً في غرفة الصَّف يهدد أنه سينتقل معي لمدرستي الجديدة التي نُقِلْتُ إليها، كان تحدِّياً جبَّاراً منه أنه سيهزم من أجلي المكان والزمان، لقد حان موعد تنفيذ وعده ولكن في مكانٍ وزمانٍ جديدين، أنا وصديقي الراحل أكثر حاجةٍ له فيهما.

حاولتُ تفسير توقيت ظهور هذا الطفل المنقذ، كان ظهوراً محدِّداً في زمنٍ خاصٍّ، ظهر في نفس الساعة التي قررتُ فيها أن يكون اسمه هو اسم الطفل الذي لم يولد بعد لصديقي الحبيب الراحل، ظهر لي نفسُ الطفل فور نقل الوصية واختيار الاسم... في مكانٍ جديدٍ. تساءلتُ لم ظهر هو دون غيره؟ لماذا هو دون العشرات من طلبة مدرستي الحبيبة الذين عشقناهم أنا وصديقي الراحل؟ ربما كان ظهوره يحمل رمزيّة الانتصار القادم على الزمان، وربما يحمل كذلك أمان الأيام القادمة، ظهر الطفل الحبيب عبدُ اللطيفِ مع أول رشفةٍ من فنجان حزنٍ كادت نهايته أن تعلن هزيمتي أمام الزمان، فنجان صغير لم يكتمل إلا بانتصارٍ سريعٍ على الزمان، فجَّرهُ عبد اللطيف وأَجَّلَ الهزيمة... طويلاً.

غريبةٌ نهايةُ هذا الخريف فعلاً، كم حملت لي من أخبارٍ وأظهرت لي بطـولاتٍ! إرهاصـاتٌ خريفيةٌ خُتمت برحيل صديقي مع وداع الخريف، كم بَعَثَتْ نهاية هذا الخريف الأمل في قلبـي حينما ظهر عبدُ اللطيفِ، الطفل الذي راهنتُ عليه لهزيمة العدو الذي يحاربني قد ظهر، حان الشتاء عندما ظهر عبدُ اللطيفِ في عالمي مجدَّداً، ظهر عبدُ اللطيفِ عندما بدأت الناس بإيقـاد النار والاجتماع حولها للثرثرة كالمعتاد... يثرثرون عن حكاياتٍ ليست بـأهمّ مـن حكايـاتي الطويلة، في أجواءٍ باردةٍ تجمدت فيها كل الحكايات وهدأت فيها جميع الألوان، وكؤوس الشاي تبلل تجاعيد الزمان فتضفي على الحكايات الطويلة كلّ معاني الجمال، ما أجمل الخريف! وما أروعه رغم ألمه! كانت رحلتي عبارة عن حكاية خريف ومكان، ممتزجة بـالأحلام التـي لا تنتهي، طارت أحلامي فوق السحاب مع عبد اللطيف وظهوره المفرح القصير فـي حيـاتي، ظهر عبدُ اللطيفِ وأيائل الشتاء الخجولة توشك على الظهور فوق رؤوس الجبـال البعيـدة، نظرتُ لعبدِ اللطيفِ ملياً وتخليَّتُ أنَّني أقرأُ "شتاءُ ريتا الطويل" لدرويش.

حوارٌ قصيرٌ خاضه معي الأمل الجديد عبد اللطيف، لم يكن كحوارِ أبي حسانٍ القديم، فلم أهتم بالحوار هذه المرة كاهتمامي به قديماً، لم يعد أيّ حوارٍ يهمني، لقد أضـحى المهـمُّ صـدق محاورك ومحاربته لأجلك، أبو حسانٍ حاورني وهرب، نصحني ولاذ بالفرار تاركـاً عنـوان وجوده يصادرُ لأغرابٍ، نصحني ولم ينصح نفسه، اهتممت بحواره كثيراً وإذا بـه يخـذلني، اختفى وصار هارباً، لكن لا هدف من هروبه بالتأكيد، لا هدف له كهـدف "بـن ريتشـاردز" الهارب ذي الأهداف النبيلة بطل حكاية "ستيفن كينج". أعتقد أن محاوري الجديد لن يخـذلني كأبي حسانٍ... فهو لم يأتِ ليحاور، بل ليمنحني الأمل ويكسبني جولة في مواجهة مُـواجِهي، وليؤكِّد أنني راهنت على الشخصية الملائمة لأحداثي المقبلة، فقد مَثَّلَ ظهوره السريع عنوانـاً لتحدياتٍ لا تنتهي، كان انتصاراً مؤكَّداً لي، فالأمكنة كلها قد توحَّدَتْ لتحارب معي الآن، وهذا الاسم عبد اللطيف صار اسماً يواجه كلَّ مؤامرات الزمان العنيفة القاسـية، ولا أعتقـد أننـي سأصفُ محاوري الجديد هذا يوماً ما "بالهارب عديم الأهداف" كأبي حسانٍ إطلاقاً.

ظهر عبد اللطيفِ في نفس اليوم الذي تقرر لاسمه أن يتكرَّرَ ويُحمل لشخصٍ جديدٍ في مكـانٍ آخرَ، صار عبدُ اللطيفِ حلماً لحياةٍ جديدةٍ تؤكِّدُ ولادة صديقي الراحل مجدداً وبقاءه الأبديِّ في كلِّ عناصر قصتي.

سيبقى صديقي الراحل يحاربُ معي بحبِّه لعبدِ اللطيفِ الأمل والأمنية، عبدُ اللطيـفِ التلميـذ وعبد اللطيف المنتظر، قصة صديقي ستمدُّني بوقود الاستمرار في محاولة تحقيق ذلك الحلـم الذي لم يُصَغْ بعد، صديقي لم يمت لأنه ترك لي حكايةً طويلةً مزجت بين المكـان والزمـان

وبين الوصايا والعهود، وفائي لصديقي مستمر ولأحبائه الذين أحبَّهم، حقاً لقد وُلِدَ الانتصار من رحم الهزيمة، وبُعث الاطمئنان في عزِّ الخوف، هكذا كان في رحلتي المتواصلة، صار الخريفُ عنواناً للاستمرار والتجديد رغم ما سبَّبه من رحيلٍ لصديقي وأوراق الشجر، لكنَّه أعطاني أسلوباً للبدء من جديد، كان الخريف رائعاً، وشجرة الكينا صارت فكرةً جعلت قلبي مستعدَّاً للوفاء دائماً، لأحباءَ سكنوا في أعماق أعماقي، أحباء لن يقدر الزمان على محوِّهم من ذاتي رغم قيامه بسرقتهم من واقعي، لأنَّهم سكنوا هنا... بين الضلوع.

لم يستطع الزمان إيقاف مارد عبد اللطيف الذي انفجر صاعداً إلى عنان السماء، عبدُ اللطيفِ فكرة الانتصار والثورة، لم يتوقع الزمان ولادة الانتصار من حلمٍ مجرَّدٍ خارج المكان، لم يتوقع الزمان أن يهزمه حلماً بسيطاً، لم يتوقع أن يكون السِّلاح هو مجرد حلمٍ ويكون فتَّاكاً... ينتصر عليه في طرفة عين.

فوارقُ شاسعةٌ بين الاستسلام والصمود، أبو حسَّانٍ رحل مستسلماً غريباً إلى ديار (اللاوطن)، بطلي القديم ظلَّ جبَّاراً حتى هَزَمَ نفسه بالرحيل، لم يقو على الاحتمال وغادر، لم يجرؤ على العودة ليرى ما حلَّ بمكانه؟ ومن احتلَّه بعده؟ لم يفكِّر لوهلةٍ أن له حقاً كان قد تركه وراءه، لم ينظر خلفه مطلقاً، لم يفكِّر أبداً أن فكرة الانهزام والتخلي عن الحقوق باتت من صنيعه، لم يحاول إيجاد طريقةٍ لحفظ هذا التراث وهذا المكان، فكَّرَ في شيءٍ واحدٍ فقط ونفَّذه سريعاً: الانهزام السريع.

هندٌ وعبيرُ رحلتا، دون التطرُّق لفكرة الصمود في المكان، اختارتا بناء الذات الحتميِّ في مكانٍ جديد، سيكون مكان الديمومة والبقاء، ميلاد قصة صمودٍ هناك، الاحتفاظ في حقِّهما في المكان ظلَّ موجوداً، المكانُ صار أمكنةً لهما بدون تفريطٍ بالتأكيد. خالدٌ رحل مجبراً عن المكان غير مفرِّطٍ فيه، رحل مدافعاً عنه ولم يسقط، لكنه ترك من فوَّضهم بالحفاظ على المكان، رحل خالدٌ مطمئنَّاً أن رسالته باقية في أذهان الكثيرين، خالدٌ الراحلُ الخالد. عبدُ اللطيفِ الطفل لم ولن يرحل، لأنه قرَّرَ أن يكون درعاً يحمي المكان، اختار النِّضال والمقاومة والصمود، ربما تعلَّمَ بالفطرة درس الصمود الأبا حسَّانيِّ. عبد اللطيف القادم سيجدُ درساً في حب المكان ينتظره، تفريط أبي حسانٍ كان لمرةٍ واحدةٍ فقط لن تتكرَّرَ، ولن يسمح لها بالتكرار كلُّ من عاصر حكايته وكلُّ من لم يعاصرها، كلُّ من عرفها وكل من لم يعرفها، فكرة أبي حسانٍ كانت تجربة هزيمة لن يكررها أحد مطلقاً.

عبد اللطيف وغيره من أطفال مدرستي كانوا أحلاماً لمستقبلٍ رائع وجميل، لكنَّ لقاءه في هذا التوقيت كان هاماً، فلولا هذا اللقاء خارج حدود الزمان والمكان لفقدتُ هُويَّتي مرغماً بعد تنفيذ وصيَّة صديقي، كان لقاءً لكلِّ الأجيال، كان ظهوره أمنيةً أعادت فيَّ طاقاتٍ مجمدةً في ليلِ الذكريات الخريفية المؤلمة، زمان اللقاء أنقذني، ومكانه جعل مني شاعراً يتغنَّى بأمكنته المحبوبة، هذا ما جعلني منتصراً فعلاً، فقد مثَّلَ ظهوره لغة المشاركة بين كل الأمكنة في شخصٍ واسمٍ، نُقِلَ الزمان عبر المكان في حكايتي، نُقل عبدُ اللطيفِ الفكرة والاسم عبر كل الأزمنة والأمكنة لتحمل ذكرياتٍ لوالدٍ لم يستطع تفسير تسميته لولده، وتحمل في داخلي أنموذجاً للبقاء والاستمرار، لأنَّ إعلانَ الهزيمة أمام الزمان أو المكان؛ كان يعني انتهاء حكايتي.

انقضت هذه المرحلة من حياتي بكثيرٍ من الدروس والتجارب، في داخلي تجددتْ الأبعادُ التي لا تُنسى، خالدٌ الصديق الراحل أصبح في داخلي فكرة الميلاد والديمومة، رحيله الأبديّ لم يمنع تجدد الآمال بطفله المنتظر عبد اللطيف، الاسم الذي لا بدَّ من تكراره في زمنٍ آخر ومكانٍ آخر، عبد اللطيف المنتظر سيكون عنواناً لتخليد مرحلةٍ من حياتي في مدرستي الحبيبة وشجرة الكينا التي تشاركنا الأحلام تحتها، لتظلَّ أفياء شجرتنا تظلِّلُ على ذاكرتي عبر الأزمان والأمكنة أن حكاية كانت أجمل حكايات حياتي باتت الآن تجربةً ومشواراً للأجيال الجديدة، جيل عبد اللطيف، الحلم والحقيقية.

أدركت أخيراً لعبة الزمان والمكان، بل لعبة حياتنا التي نعيش، الكلُّ يتبادل الأدوار فيها، الكل يخدم حقيقية قد حان اكتشافها والتوصل إليها رغم ما واجهنا من لحظاتٍ مريرةٍ، الزمان والمكان والأحداث والمواقف كلها تقدِّمُ لنا هذه الحقيقية في حياتنا، الرحيل والميلاد، أدركت هذه اللعبة بعيد صراع مرير خضته وصديق راحل تُركتْ آماله بانتظار التحقيق، الرحيل والميلاد يشكِّلان فلسفةً لحياتنا التي نعيش، لا رحيل بلا ميلادٍ ولا ميلادَ بلا رحيلٍ، تلك سنَّةُ الحياة، أحداثٌ تُتْرَكُ لتعيش في أفياء الشجر وذاكرة من أحبونا، رحيلٌ يعقبه ميلاد، وميلادٌ تعقبه ألوانٌ من الرحيل، الخريفُ يرحل ويعصف بأوراق الشجر، والشتاء يعطي أرضنا الحبلى درساً في الميلاد من جديد، والربيعُ ميلادٌ جديدٌ لحياة أعقبت رحيلاً قاسياً...

4- الحبُّ... مرةً أخرى.

بدأت قصصُ الحبِّ في داخلي منذ أمدٍ بعيدٍ، مذ كنتُ طفلاً، منذ أيام السهر على كانون النار في برد الشتاء في البيت القديم الذي سكنه جدي الراحل، تلك الذكريات التي لا تنسى مضت وانقضت منذ أمدٍ بعيدٍ، قبل عشقي للمكان وصراعاتي المتواصلة مع الزمان، لكنَّني لن أنساها، لأنها كانت لحظات خارج حسابات الزمن، لحظات لا تزال تطير فوق شجرة الرُّمان المُعَمَّرة في فناء بيت جدي القديم في سهرةٍ قمريةٍ، ولحظات من ليالي الشتاء عَلِقَتْ في أطراف حكايتي، كترابِ الأرض الندِيِّ الذي لن يزول عن أطراف (قمباز) جدِّي، لحظاتٌ ظلَّت من ذكريات الماضي الذي لا يعود، حبَّاتُ رمَّانٍ صيفية أدمعت عينيَّ بعدد حباتها اللؤلؤية، تناولتها من يد جدي المقدسة في جلسةٍ صيفيةٍ في ظلِّ شجرة الرمان وكرمته متدلية القطوف، لحظاتٌ تمنيت أن تطول وأن تعود، صيفٌ وشتاءٌ تعاقبا بهدوءٍ على حكاياتي مع جدي قبل أن يُسرقَ مني هذا البطل، قبل سَرِقة أبي حسانٍ من حكاياتي.

سهراتُ شتاءٍ ليليةٍ، ارتقبتُ فيها بقايا جمرات الكانون تضمحلُّ وتختفي في جوٍ قارسٍ، واستذكرت اللحظات التي اختلس فيها النظر إلى حبيبتي (حبيبة الطفولة)، لم أكن قد تعرفتُ

معها على أيِّ معنًى للفظة حبيبة، اختلفت نظراتي إليها عن نظراتي لمحبوبتي هند، كانت نظرات عينيها تزيد من وهج جمرات الكانون الذي كنت أجلس بقربه مع جدي، لحظاتٌ سكنت تاريخي مع أحاديث جدِّي الجميلة عن هذا الماضي الطويل لقريتنا، حدَّثني عن قصصٍ لأناسٍ يخوضون الآن فلسفة الرحيل الأبديِّ، ولدت فكرة الرحيل في داخلي منذ طفولتي، مع ميلاد فكرة الحبّ، الحب والرحيل، حكاياتي شابهت سيمفونيات الحب والرحيل التي باتت تعزف أوتارها في حياتي، لكن ليس كباقي الألحان، ألحانٌ حزينةٌ تؤلم قلبي وتدمي عينيّ، ستُعزف طويلاً في حكاياتي لاحقاً، لن يستطيع (نيكولاي ريمسكي) أو حتى (بيتهوفن) إيقافَ عزفها الجنونيّ، رحيلُ جدِّي كان أولَ لحنٍ أعقبته مئاتُ الألحانِ الحزينة... لتقتلَ أحلامي لسنواتٍ.

حدَّثني جدي عن رحيل العثمانيين الأخير عن بلادنا، وقيامه مع غيره من الأولاد بتوديع بقايا الجيش المُدَمَّر قبل رحيلهم الأخير عن البلاد، حدَّثني أيضاً عن بطولاتهم في الحرب، لا أدري أنا كيف كان يصفهم بالأبطال رغم وصفه لهم بالمُدَمَّرينَ؟ كيف فكَّرَ جدي بهذا الوصف الدقيق الذي كرَّرَهُ مراراً وتكراراً كلما حدثني عن هذا الحدث الذي يعتبره من الأحداث التاريخيَّة في حياته؟ رغم أنه جرى وهو لا يزال صغيراً، جيشٌ بطلٌ ومدمَّرٌ، كلمتان صارتا وصفاً للعثمانيين من منظورِ جدي، تفسيرٌ لا يزالُ معلَّقاً في حكايتي ولا بدَّ من تفسيره هو الآخر.

كنت استمتع بأحاديث جدّي كثيراً، أتخيَّلُ نفسي فارساً عثمانياً على جواده متأهِّباً قبيل معركةٍ حاسمة، متفقِّداً جيشاً هائلاً مليونيّاً، يستعدُّ هذا الجيش للانقضاض على جيشِ العدوِّ، لم أعرف حقيقةً أيَّ عدوٍّ كنت أعني حينها؟ المهم أنه عدوٌّ ويستحق السحق، وما يلبث هذا الفارس إلا أن يدخل قريتي الصغيرة متوجِّهاً لمنزل حبيبتي الصغيرة، داخلاً عليها بسيف فرسان المعارك القديمة ومحتضنها بحبٍّ وحنانٍ، لنركبَ معاً حصاني ونطير، نسافرُ بعيداً جداً عن كلِّ الناس في مساءٍ شتويٍّ ضبابيٍّ، حكاياتي مزجت في داخلي الطفولي بين أبطال جدِّي الراحلين وبين فروسيَّتي التي ترجمت بلغةٍ واحدةٍ... الحبُّ فقط.

كان هذا البطل يكبر في نفسي يوماً بعد يوم، وحكايات جدي تستفزُّني لأكونَ بطلاً من أبطالها، سهرات شتاءات قديمة عاشت في داخلي سنواتٌ طويلةٌ ولن تموتَ في أعماقي، كحكاياتي الحقيقية الباقية، عشت حياتي في مراحل متعددة، قديمة وحديثة، جديدة ومتجددة، لم أذق أجمل من طعم أيَّامي الطفوليّة تلك، لم تكن تحتمل في داخلها لفظة رحيلٍ، ربما رحيل الأحلام، رحيل –رغم قسوته– لم يكن يعني فُقداناً للأشخاص الذين خضت معهم تجربة ومرحلة، سهراتي الطويلة مع جدِّي في ذلك البيت القديم الذي لحكاياته فيه طعم خاصّ مع أصوات

المطر وزمهرير الشتاء، أمَّا دفء موقده القديم وكانونه فكان يعطينا درساً في حبِّ الحياة، واستمرار الأحلام تَتَّقِدُ كما جمرات كانونه، ذكرياتٌ من ماضينا ساكنة هناك... في الأعماق.

كنتُ أحبُّ كلمات جدِّي المليئة بعبق فروسيتي المفترضة، عدت إلى زمن العثمانيين مراراً، حكايات جدي جعلتني أتفقدُ مواقع قريتي وآثار العثمانيين المدمَّرين الأبطال، تخيَّلتُ نفسي جدي الصغير الذي يودِّعُ هذا الجيش، كان يشعر بالفخر حين يذكر تلك الحادثة، يذكرها في كلِّ سهرةٍ من سهراتنا الكثيرة، كأنَّه أراد أن يُلْصِقَ بداخلي فكرةً ما، كأنه يعلمني أنَّ البطلَ يُدَمَّرُ لكنه لا يهزم، أراد لحكمة (آرنست همنغواي) عن الإنسان أن تلتصق بي كي لا أُهزم مستقبلاً، جدي ليس (همنغواي)، لكنه علَّمني حكمته تلك بحنكةٍ ومهارةٍ يحسده عليها صاحب "الشيخ والبحر" كثيراً، أرادني أن أكون بطلاً وأن أتحمَّلَ كل المراحل الصعبة والدقيقة المقبلة في حياتي، قصة وداعه للجيش كانت منذ أمدٍ بعيدٍ، حدَّثني عن لحظات الوداع بدقةٍ، تذكرها كلها لكنه نسي سنة الوداع، زمان الرحيل لم يكن يعنيه، ما كان يعنيه فعلاً هو فكرة رحيل بطل عشقه كثيراً، رحل ولم يهزم، حدَّدَ لي أزماناً عدة لهذا الرحيل لم تهمني أنا الآخر، ١٩١٥ أو ١٦ أو ١٧ لن تفيدني، المهم أنّ الفلسفة التي علَّمني إيَّاها جدي بقيت في مخزون تجاربي حتى ولدت حكاياتي، وجَرَّبْتُ رحيل وانهزام من هم أهمُّ من العثمانيين وأكثر منهم بطولة (على الأقل بالنسبة لي).

مراحل حياتي اللاحقة جعلت هؤلاء العثمانيين أبطالاً لن يستمرُّوا في داخلي، لا مكان لهم في داخلي، فأبطالي الحقيقيين قد جاؤوا، وصراعاتي بدأت مع عناصر قصتي، جدي حدَّدَ لي منهجاً عن قوة الاحتمال احتجت سنواتٍ لتجربته وإعطاء الرأي فيه، بعد أن رحل هو والكثيرون من أبطالي، وتركوني جميعاً في صراعٍ لا ينتهي.

للحبِّ عندي حكاياته الخاصة، منذ ذلك الحب الطفوليِّ القديم الذي لم يخضع لمعايير الحب، الحبُّ الذي ارتبط بحكايات جدِّي ورحيل العثمانيين الأبطال، مع فروسيتي التي كانت من أجل من أحب فقط، كان حباً يرمز إلى التضحية بكلِّ الأشياء من أجل المحبوب، ذلك هو الحب، أن تكون لمن تحب بأيِّ ثمنٍ، أن تخطف من تحبُّ بقوة جيشٍ عظيمٍ وتطير فيه إلى أي مكان، وجودك مع من تعشقُ كان هامَّاً، بهذا ستنتصر على المكان ولن يثنيك عن حلمك أيُّ زمانٍ، هو الحبُّ الذي علَّمنا (العقَّادُ) إيَّاه، أن تُفَضِّلَ امرأة دون غيرها على كلِّ النساء، تلك وصايا عقَّادنا، وهذه حكايتي، لم أتعلم من ذلك الدرس العثمانيِّ العقاديِّ شيئاً، هُزِمْتُ في جولةٍ عمليةٍ لتجربةٍ تفوقتُ فيها نظرياً، لن يتكرَّرَ خطأ الراحلتين هند وعبير، رحلت هندٌ بكلِّ معاني التفريط بعد قصة حبٍ كلاسيكيّة، صرتُ كأبي حسانٍ المفرِّط، الفارس المضحي لم يجد مكاناً

يخطف إليه حبيبته، وتعاليم جدِّي عن قوة الاحتمال وتلافي غدر الزمان لم تطبَّق، ليتكرر الدرس وتخطف حبيبتي عبير إلى مكانها الخاص، ولكن بواسطة فارسٍ آخر لم يجد جيشاً يحاربه أو حتى محارباً فاشلاً (كالدُّون كيشوت)، لم أكن أيَّ فارسٍ في تجربتيّ، الأمر الذي أحزنني كثيراً وقررتُ تعويضه، إن بقي قصصٌ في حكاياتي التي ضاعت كلها وانتصر فيها الحبُّ... عليَّ.

لم يكن أحد يتوقع أن أخوض تجربةً جديدةً في العشق، لم أتوقع أنا أن تُعادَ تجاربي من جديدٍ على أمل تعويض الإخفاقات السابقة، ظنَّ المكانُ أنه انتصر في رحلتي حين دَمَّرَ أبطال الحارة وأجبرهم على الخروج، أوشك المكانُ أن يهزم كلُّ الأبطال، لكنه فشل أخيراً لأنَّ هناك من هزمه، هناك من كان أقوى منه بكثيرٍ. الزمانُ انتصر مِراراً حين دَمَّرَ مكاني وحارتي وانتصر عليهما، وخطف مني أغلى أشيائي في لمح البصر وطردني من مكاني وخطف أبطالي، كادَ ينتصر على الجميع قبل أن أعالجه ببطليّ عبد اللطيف التلميذ وعبد اللطيف ابن رفيقي المنتظر، عالجته حين أدركت فلسفة الرحيلِ والميلاد وطريقة الإمساك بخيوط اللعبة، الحزن الذي رافقني على صديقي الراحل بات إصراراً على الانتصار، جلسةُ شجرة الكينا لم تعد محرمةً، لم تنفَّذْ في الواقع حتى الآن لكنني قررت تنفيذها في الوقت المناسب، لأعاجل الزمان بضربةٍ سحريةٍ في المكان الذي أخرجني منه مرغماً، في أرضي وساحة معركتي، حتى الحب الجديد خلق في أعماقي دون مقدِّمات، فجأة خُلِقَ دون أن أتوقَّعَ ذلك، ببساطةٍ وُلِدَ في قلبي، بعيداً عن ظروف المكان والزمان القديمة، خلق الحب في مكانٍ آخر بعيد وفي زمانٍ لم أختره، خلق في موعده استمراراً لانتصاراتي على الزمان.

صارت تلك الفتاة حُلمي، أصبحت مشوار الأمل في حياتي، لقد أحببتها، كانت جميلةً وخجولةً، تذوبُ خجلاً حين تلمحني أرقبها بعينيَّ، مع احمرارٍ في خدَّيها يظهرُ جليَّاً، كخديّ هند الراحلة، هي تجربة رائعة من هند فعلاً، جاءت إلى عالمي مجدداً، هي هند الجديدة وخجلها، هند المتطورة خجلاً وجمالاً، في أكثر الأحيان تلبس تنورةً زرقاءَ غامقةً، وقميصاً أزرقاً لونه أكثر لمعاناً، قميصها لا يكاد يخفي بروز ثدييها اللذين بدآ يشيران إلى حكاية فتاتي، لتشكل حُمْرَةُ خدَّيها وزرقة قميصها، مع تخيلاتي بأرجوانية ما يغطي ثدياها الصغيران البارزان أجمل المعاني لقصةٍ ما لبثت أن ولدت في مخيلتي، عن تلك الفتاة التي سحرت فصولي كلها، لتستقرَّ في آخر أمرها ساحرةً لربيع ذكرياتي الذي ولدت فيه، والذي ولد فيه حبي لها.

بتُّ أكثر جرأة في تخيل هذه الحبيبة، كانت تضفي على حياتي شيئاً من الاستقرار والطمأنينة، كأنَّها جاءت كي تنهي صراعاتي، أو قل لإيقاف معاركي مؤقتاً، وكأنَّها ولدتْ من أجل اختبارٍ

أخيرٍ لفروسيَّتي، تخليتُ كلَّ الراحلين يقفون في داخلي متأهِّبين لمعركتي الأخيرة، تمنياتهم كانت أن انتصر أخيراً، فقد طال انتظارهم. جدَّي يحثُّني على ترجمة بطولات العثمانيين الذين عَشِقَهُم، يذكِّرني مراراً بحكمة (همنغواي) ويطلب مني الانتصار الأخير، يُنَبِّهُني كذلك إلى عدم التركيز على الزمان فكلُّ مواعيد الزمان ستدمِّرُني إن وثقتُ إليها، حثَّني على الدخول في المعركة دون أيِّ حساباتٍ سوى حسابات الانتصار الكبير المنتظر. هند وعبير تقفان بشوق ممتزج بالحسرة تتمنيان مني حَسْمَ قراراتي مع محبوبتي الجديدة كي لا تستقرَّ معهما في فكرة الرحيل الأبدية. أبو حسانٍ يقفُ حزيناً دون أن يتحدَّثَ، ربما أراد أن لا أخطئ كما اخطأ هو، أراد مني الانتصار والبقاء، خَجِلَ الحديث بلسانه وحدَّثني بصمته الحزين. خالدٌ أيضاً يذكِّرني بقراري المعلَّق المتَّخذ تحت شجرة الكينا، ذكرني به وعرفت أنا مقصِده. أما عبدُ اللطيفِ فلم يحضر تلك المعركة، ربما سيحضرها في الواقع، وربما لا يزال يستطيع أن يدخل معي معركة جديدة ضدَّ كلِّ عناصر حكاياتي، ويكون له قرارٌ حقيقيٌّ فيها. المعركة قد بدأت وحان معها تنفيذ كل القرارات دون تأجيلٍ، لن أبقى ساذجاً ضعيفاً أمامَ الزمان الغادر وبخاصةٍ أن المكان حالفني أخيراً، والفتاة التي أحلم بها قد جاءت، فتاةُ الفارس المقاتل جاءت ويجب أن يحملها على جواده أخيراً... قبل أن يترجَّلَ عنه مرغماً (في القريب العاجل!).

بدأت هذه الساحرة الجديدة تمتلك كل أحلامي وأوقاتي، لا يكادُ يمرُّ طقسٌ من طقوس الأيام المستحيلة إلا وقد امتلكت فيه حكاية، استمرت انتظاراتي لها أوقاتاً طويلة، كان خطابي لها فكرياً بامتياز، كنت أخاطبُ ذاتها بكلمات عينيّ المبعثرة، لم أجرؤ على بدء القصة الصريحة معها (كعادتي اللعينة!)، وشَعَرَتْ هي بي كعاشقٍ مجنونٍ لكنها ظلَّت منتظرةً، أظنُّها لن تكون هنداً ثانية في انهزامها أو عبير في صمتها الجريء، ستكون فتاتي الجريئة غير المستسلمة، المبادرة رغم جمالها الأخَّاذ! انتظرت قليلاً كي أبوحَ لها بكل معاني العشق التي أخفيها بين جوانحي، لكنني ظللتُ صامتاً، بدون أن أحدِّثها بحكاياتي المريرة.

تحوَّلت قصةُ حبِّي هذه إلى معركةٍ مع أشياء حبيبتي، تجلّت بالألوان، ألوان حبيبتي تلك، الأزرقُ والأرجوانيُّ وأحياناً الأحمر، تَجَلَّى عشقي لها عشقاً لألوانها تلك، العاشقُ المجنون! تحولت ألوان مقتنياتي مثل ألوانها الجميلة أملاً في حبِّها وتخليداً لألوانها في ذكرياتي، غرفتي أصبحت ألوانها زرقاء، تموَّجَتْ ذاكرتي بكثيرٍ من الأشياء، تمنَّيتُ أن تكونَ صورةُ حبيبتي هذه معلقة على حائط غرفتي فوق ألوانها الجميلة، اللونُ الذي عشقته من عشقي لتنورتها وقميصها المجنون، وما لبثت أن اقتنيت قداحة أرجوانية، مع أنني لا أدخنُ مطلقاً! لا أعرف

لماذا انتقيت (للقدّاحة) بالتحديد هذا اللون؟ خاصة أنه لون ما يغطي ثـديي حبيبتـي! وأشـياءٌ أخرى كثيرة كان عنوانها ألوان حبيبتي الأزرق والأرجواني والأحمر.....

لم تغب فتاتي الساحرة عن أحلامي وأمنياتي لحظةً واحدةً، صرتُ مجنوناً بهـا، جريئـاً فـي تخيُّلِها كما أريد، امتلكتُ إصراراً هائلاً على عدم التَّفريط بها، معركتي بدأت مع ألوان حبيبتي الجميلة، ثم تغيَّرت طقوسُ رحلتنا الجميلة، طارت الألوان المميزة التي أحببتهـا عـن جسـد حبيبتي، هي لم تتعرَّ، لأنها ارتدت أشياءَ أخرى جديدة ومختلفة ولا مجال لهذه الألوان البرَّاقة الآن، أنا لم أنجذب للألوان كما انجذبتُ سابقاً، فألواني السـابقة ماتـت مـع تـرك حبيبتـي لاختيارها، أعدتُ طلاءَ غرفتي بلونٍ آخرَ لا معنًى له، ورميت قداحتي في بئرٍ مهجورةٍ، لـم أعد أحتاجُ الألوان، فحبيبتي لم تعد تحتاجها، أصبحت في مخيِّلتي بلا ألـوانٍ، وبـلا ملابـس أيضاً، أصبح جسدها يسكن وجداني. غادر القميص الأزرق لأجدَ مكانه جسداً أبيضَ مُتَمَوِّجاً، كمحصول قمحٍ نديٍّ تحركه نسائم صباحية، وغادرت التنورة لتكشف عـن فخـذين جميلـين وأشياء أخرى أغلى ثمناً، وما لبث أن غادر ثدياها ما يغطيهما من تخيُّلاتٍ أرجوانية، كاشـفةً عن نهودٍ قادمةٍ من متحف الشمع، كأنها أقراصُ عسلٍ لمملكةِ نحلٍ بَنَتْ مملكتها فـي شـجرة زيتونٍ مُعَمَّرة في عمق جبل، سكن ثدياها الصغيران في عمق أحلامي وسكنت فتاتي تلك في مستقبلي، تركت الألوانُ عالمي لتبقى الصورة على طبيعتها في مخيلتـي، والجسـدُ العـاري ينتظر ما يفضي إليه من عشقٍ كعشق أيامي الجميلة، حتى لو كان الثمن حياتي وكل تجاربي، لأغوص مجدداً في زمن الحب الذي ستنتقل فيه حبيبتي لمرحلةٍ جديدةٍ، تعقبُ مرحلة ألوانها... وجسدها العاري.

لا أصدق ذلك اللقاء مع حبيبتي في رام الله، هناك انتهت كل المعارك بانتصاري، انتصـرت في المعركة التي أخوضها مع كلِّ الأشياء، وشَهِدَتْ شخصياتي الساكنة فـي أعمـاقي علـى انتصاري، صدفة التقيت بها هناك، كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة ظهراً، كنت مرهقـاً فعلاً، دخلت كافتيريا كي أشرب فنجاناً من القهوة أهدِّئ فيه من صداعٍ شديدٍ يرافقني أحياناً من ضغوط العمل ومهنة التدريس التي لا زلت أؤكد أنها رائعة، جلست علـى طاولـةٍ ونظـرت حولي، لأجدَ حبيبتي تجلس مع صديقات لها يتناولن (الكوكتيل)، حَدَّقْتُ طويلاً بها وهي حَدَّقَتْ بي كذلك، قامت من جلستها وجاءت إليَّ، جلست معي وشربت القهوة، تحدَّثنا طويلاً، باحـت بأسرارٍ كثيرةٍ لي، وأنا أخبرتها عن حكاياتي، حَدَّقْتُ فيها طويلاً حين رَشَفَتْ القهوة، أرى في عينيها خجلاً وهروباً، نهوداً كثيرة وأجساداً عارية، وألوانَ حكايتي، قررنا اللقاء مرات أخرى، قررنا بدْء قصة الحب، قصة الأزرق والأرجوانيّ، قصةُ الأجساد العارية والنهود...

كانت معركتي الأخيرة مع ساحرتي الصغيرة أبسطُ مما ظننتُ، النصرُ الذي حققته في معركتي من أجل حبيبتي في داخلي كان عظيماً، كان أهمّ من نصر المعارك العظيمة في التاريخ، لم أحتج في معركتي أياً من الأسلحة التي أعددتها، حتى جيش العثمانيين ظلَّ دون أن يخوض معركته معي، جدي أعطاني قانوناً للانتصار طبقته بحذافيره، شخصياتي كلها فرحت بانتصاري، عبدُ اللطيفِ رمز الانتصار وقصة الحبِّ الأبدية منحني رغبةً جامحةً في الصمود، سيمفونيات الرحيل توقفت عن عزف لحنها الوداعي وعزفت لحن شهرزاد، لحنَ القصص الكلاسيكية وألف ليلة وليلة، فقصتي الكبرى قد بدأت، وانتصارٌ كبيرٌ حُقِّقَ في معركتي العظيمة، معركة القصص الخرافية ومعركة كل الكائنات، كأنَّ (جون تولكين) بُعِثَ من مرقدِهِ ليكتب قصة معركتي بقلمه السحريِّ، كما معاركُ (سيِّد الخواتم) الرهيبة، فأنا قد حققت الانتصار أخيراً بعد سلسلةٍ طويلةٍ من الهزائم القاسية، انتصارا غاليا، لأنه كان في المعركة الفاصلة بيني وبين كل الأشياء، انتصاراً كان عنوانه "الحبَّ ... مرةً أخرى".

لم يكن هذا الانتصارُ بالأمر العاديِّ البسيط، ربما كان عادياً لغيري، لكنه كان التجربة الكبرى بالنسبة لي، فرحلاتُ الزمن السابق قد انتهت، وأصبحتُ أحملُ في داخلي فكرة إحياء ما مضى من ذكرياتٍ وردية، صرتُ أَحِنُّ أكثر إلى صديقي الراحل، تَوَّجَ انتصاري كلَّ تجاربي وطمأنَ صديقي أنني لا أزالُ وفياً صامداً، سيطمَئِنُّ كثيراً عبدُ اللطيفِ لأنني لم أهزم ولم أرحل، كان هذا الانتصار غريباً، فهو الذي سيجعلني أحلم مجدَّداً برؤية شجرة الكينا... مرةً أخرى.

كان من حقِّي أن أغنِّي وأرقصَ فرحاً بانتصاري، لا يزال الوقت أمامي، حلم العودة لشجرة الكينا الحبيبة صار يشتعلُ في قلبي، والوفاء لصديقي بشكلٍ مختلفٍ وجديدٍ صار حُلماً حقيقياً في بالي، عودتي إلى تلك الشجرة الغالية والمدرسة كانت قد تقرَّرت في أحلامي فعلاً، لم تكن فترة رحيلي عن مدرستي تلك قد طالت حين قررت العودة، قرار العودة اتُّخِذَ بيني وبين نفسي أخيراً، وبَقِيَت طريقةُ تنفيذِ القرارِ.

ربما أعودُ مجدَّداً لمدرستي تلك في المستقبل، وربما قريباً، بعد أسابيع قليلةٍ عن رحيلي عنها رغم ما جرى من أصناف الرحيل بعد رحيلي، سيكون ذلك انتصاراً جديداً يُضافُ لانتصاراتي، سأعود للحلم مجدداً في مدرستي وسأحاول تحقيق أحلام صديقي الراحل من جديد، سأراقبُ عبد اللطيف وهو يَكبرُ مجدداً، وسأحميه من هجمات الزمان والمكان الغادرة، سأعود إلى كلِّ الأمكنة والأزمنة معاً، هكذا تصور لي أثناء إقرار مشروع العودة مجدَّداً لمكاني الذي أحب، لكنَّ السحر سرعان ما انقلب على الساحر... من جديدٍ أيضاً.

٥- رسائل الرحيل والانتظار.

(أنتـــــــظرك)

أنتظرك أن تأتي مع سحابة صيفٍ عابرةٍ، أو غيمة شتاءٍ ماطرةٍ، أو حلمٍ يَدُقُّ مضجعي آخر الليل، أو مع نسمة هواءٍ صباحيةٍ تتسلَّلُ من خلف النافذة...

أنتظرك؛ حتى يملَّ الانتظار من انتظاري.

التوقيع :

ساحرتك

(التي لم تعد صغيرة)

لا أدري إن كان جواب حبيبتي مختصراً في إصرارها على البقاء على عهد الحبِّ والانتظار، لا أدري إن توقفت الاختصارات الرمزيَّة في حياتي أخيراً، اختصارات أبي حسانٍ في توجيهي ربما لم تعد مستساغة، وربما أيضاً لم يعد لها حاجةً في غربتي الإجبارية الجديدة، غربة عن الزمان والمكان معاً، غربة ما كانت متوقعة أبداً في حياتي، الاختصارات غير مقبولة وغير كافية أيضاً، مثل اختصارات جدّي في حكمته وحكمة (همنغواي)، صرت بحاجةٍ لكلِّ كلمة تطمينٍ حقيقية، وكلّ عبارة تأكيدٍ على عهد البقاء والانتظار، صرت بحاجة لكل كلمة جديدة تزيد في شوقي وصمودي وانتظاري.

لقد انقلب المسار المحدد لأحداث قصَّتي رأساً على عَقِبَ، واقع الانتظار صار مغايراً عن الماضي، لم أعد أنا المنتظِر الذي يملك زمانه ومكانه وحريته، كما لم أعد امتلك حقَّ الانتظار، حبيبتي قررت الانتظار بعد غيابي القسريِّ الجديد الذي ما كان في تفكيري حدوثه، المكان الذي نُفِيتُ إليه مؤخَّراً كان قاسياً جداً، لن أستطيع بناء أيّ قصة أو أيَّ حكايةٍ فيه، ومآلفة المكان صارت مستحيلة، الشيء الوحيد الذي يمكنني بناؤه هناك هو حلم تِلْوَ آخر، حلمٌ بالحرية ولقاء أحبتي الضائعين في مخيِّلتي، حلمٌ بإعادة دفع الدولاب الحياتيِّ للأمام من اللحظة التي توقف فيها، منذ دخولي ذلك المكان المرسوم على خريطة الحياة بدقةٍ، دقةٌ جعلته قطعةً مهملةً من الحياة، ليس فيها أي حياة، هو قبرٌ بالتأكيد، لكنه ليس أبدياً لمعظم الراحلين إليه، سنعود إلى الحياة يوماً ما من قبرنا هذا المصنوع المؤقت، سيرسلنا قبرنا إلى مكانٍ آخر... أسوأه قبرُنا الأبديِّ.

جواب حبيبتي كان ضرورياً، خَطَّتْ رسالتها تلك ردَّاً على رسالتي التي حَرَّرَتْهَا من إجبارية انتظاري، بعد أشهر طويلة من انقطاعي عن ذلك العالم الحرَّ، رَدَّتْ ردها (الطويل..!!)، بضعة سطور كانت عندي أكبر من كل موسوعات الكون، ردٌّ وَقَّعَتْهُ باسمٍ لطالما عشقته: "الساحرة الصغيرة!"، لكنها نبَّهتني في توقيعها أنها لم تعد صغيرة، خريفان وأكثر من الخوف على ضياع حبيبتي الصغيرة، خريفان تعاقبا منذ انتصاري في معركتي العظيمة تلك لم يبقياها صغيرة، أمكنني بعد خريفين سؤالها ووصلني ردَّها الجميل، لم يعد الاختصار مهمَّاً، كان لا بدَّ من التأكيد، كل كلمة جديدة في جواب حبيبتي الطويل كانت تؤكد في قلبي مزيداً من الأحلام والآمال، مزيداً من ذكريات معركتي الأخيرة، تمنيتُ أن يطول جوابها لمئات الصفحات،

تمنَّيتُ أن يكون جوابها بطول روايات (ليف تولستوي) كلها، لأنَّ كلماتها كانت سحراً يعطيني دافعاً للرغبة الجامحة في مغادرة منفاي القسريِّ الأليمِ.

كان عنواني الجديد مرفوضاً في داخلي كمقدار قوة فرضه عليَّ من قِبَلِ عـــدوي (الحقيقـــي)، نعم، لقد تعرفت إلى عدوي الحقيقي أخيراً، لم يعد الزمان عدوي، ولم يكن المكان أصلاً بعدوٍّ، فرض عدوُّ الأجيال الدائم موقفه وأذاب عن تفكيري جليد الذكريات المتراكم، حددت في سجني أُسُسَاً جديدةً لواقعي، غبتُ طويلاً عن حبيبتي بعد أن رسمت معالم طريقي، بعد أن انتصـــرت في معاركي كلها وشَهِدَتْ شخصياتي على هذا الانتصار، غبتُ مجبراً بعد أن قـــررت رؤيـــة شجرة الكينا والمكوث عندها لسنواتٍ، فجأة توقف الزمان بي وأوقف عـــدوي كـــلَّ أزمـــاني، أصدر عدوي قراراً بوقف تَدَفُّقِ أحلامي، وقرر مصادرة حكاياتي مني، العدو الذي لم يكـــن يواجهني وحدي ويصادر أحلامي أنا وحدي، بل كان يصادر أحلام الآلاف مثلي ويقتل أحلام البعض قتلاً، لا أدري حقيقة كيف يَتَّفِقُ أن تصادر أحلام شعبٍ بأكمله أمام مرأى العالم الحـــر دون أن يحرِّكوا ساكناً؟ لم أعرف سبباً مقنعاً واحداً لضرورة سجني وتقييد حريتي، كان صعباً تخيُّلَ هذه الحقيقة المرَّة التي أدفع ثمنها عمري وأحلامي وكل تفاصيل حياتي، كـــان صـــعباً الإيمان بها، الأمر الذي وجدته عادياً وطبيعياً بعد خروجي من منفايَ، منفى الشعوب الحـــرة، منفى كل من يجعله القدر فلسطينياً... باستثناءاتٍ قليلةٍ جِدَّاً.

أكثر من خريفٍ طويلٍ وأنا في المنفى، ربما تبع كلّ خريف ربيع جميل، لم أتمكن من رؤية أيّ منهما، ولم أقدر أن أتبيَّنَ كيف كان كل خريف أو ربيع، كم بعد كل خريف عن كل أخرفتي الجنونيَّة السابقة وعن بقية فصولي، ظلّ الخريف وجماليته في بالي طوال غربتي القسرية، كم أعشق الخريف! كل مراحلي ولدت خريفية، وكل تحولات حكاياتي كانت خريفية، الخريف والربيع توأمان في حكاية حياتي المستمرة، عاشت حكاياتي تلك في عمق تلك الفصول، وأنشأتُ قصصي من خلجات الربيع القلبية، كم تمنيت رؤية شجرة الكينا المعمَّرة في كل خريفٍ وربيعٍ مرَّ عليَّ في منفاي القسريِّ! كم ندمت على اللحظات التي حرمت نفسي فيها من رؤية شجرتي الجميلة وأطفالي الصغار! كنت قادراً على رؤيتهم ومتابعتهم، كنت قادراً على الوفاء لصديقي الراحل خير الوفاء، كان الاستمرار في الحلم هو نقطة التواصل الوحيدة مع صديقي الراحل، ربما كان من الواجب أن أبقي على الأشياء التي يحبُّها رفيقي كما هي، كان يجب عليَّ أيضاً التمسك بالمكان والعودة إليه سريعاً، أدركت ذلك حين تقيّدت، كان يجب أن أزور شجرة الكينا التي تذكرني بالوفاء غير المنقطع لرفيقي، سيفرح الراحلون حين ننفّذ ما خطُّوه لنا من أحلامٍ بأرواحهم، سيفرحون بأن حياتهم دُفِعَتْ ثمناً لفكرةٍ حيةٍ، ثمناً لوطنٍ

ومكانٍ، سيفرحون حتماً لو تذكرناهم بتنفيذ أمنياتهم، بلغ بيَ الندمُ حدَّ الحقد على أبي حسانٍ الهارب، حدٌّ جعله يهرب من أعماقي، هروباً جعل منه بطلاً أضاع كل بطولاته في تصرفاته الجنونية الساذجة، وصار بطلاً للاشيء، بطل (اللاشيء) صار في داخلي أبو حسانٍ، هو من حرّمَ على نفسه كل الحقوق المصيرية، وأنا حُرِّمَتْ عليَّ حقوقي قسراً، لكنني لا زلت أعشق لحظات العودة والحرية، لحظات العودة إلى فصولي وتتبُّعِ نمو الربيع بعد شتاءاتٍ باردةٍ طويلةٍ، صرت أعشق الحرية من أجل إعادة إحياء أحلام صديقي الراحل المتروكة قيد التنفيذ، أنا رحلت مُجْبَراً وظلَّ الحلم بداخلي للعودة إلى المكان، وأبو حسانٍ رحل مختاراً مُضَيِّعاً كلَّ حقوقه وأمكنته المشروعة، أنا ربما كنت بطلاً من أبطالي الذين يسكنون داخلي، ربما سكنت أنا في داخلي حين وجدت نفسي حبيساً لعدو لا يرحم، وتاركا كل أفكاري خارج دائرة سجني البعيد، ربما كنتُ بطلا أيضا من أبطال حكاياتي الطويلة التي لا تريد الانتهاء، أقول ربما؛ فأنا لا أدري كيف أكون بطلا لداخلي.

كل يومٍ تراودني مئاتُ الأحلام، بعيداً عن كل الأمكنة والحكايات القديمة، عشت الفصول كلها متذكِّراً، تخيَّلتُ نمو الربيع مجدَّداً، زرعت كل بساتين الدنيا أحلاماً طفولية جميلة، ظلَّ قلبي معلَّقاً بحبيبتي الصغيرة، ربما بكت كل آلهة الجمال الأسطورية حزناً عليّ، ربما بكت فينوس وعشتار حزناً على قصصي الضائعة، حكاياتي صارت أحلاماً لا تتحقق، أحدِّثُها لرفاقي الجدد، رفاق المرحلة الصعبة، كلهم صاروا رفاقي، لا مجال لاختزال الحكاية مع واحدٍ منهم كما اختزلتها قديماً مع الراحل العزيز خالد، يجب على كلّ من ينفى هناك أن لا يختزل أية علاقةٍ ويحدِّدها مطلقاً، يجب أن نتبادل الأحلام والذكريات مع أكبر عدد ممكن، لئلا نشعر بمغزى الأسر الحقيقيِّ، يجب أن تتبادل الحلم مع الراحلين عن المنافي ومع الآتين إليها مُكْرَهين، حكاياتنا مشتركة هناك، وأمانينا، الانتماء هناك واحد والمكان واحد، الحلم كذلك مشترك، والعدو واحد محدد، عدوٌّ لا يعرف الرحمة أقسى من كل عناصر حكايتي، عدو لا يفرق بين حالمٍ بوطنٍ وحالم بالحرية، حالم بحبيبةٍ أو حالم بسلامٍ، عدو قتل حلم عودة أبي حسانٍ لدياره ومنعني من مواصلة انتصاراتي، عدو ساهم في دمار حارة أبي حسانٍ ودَمَّرَ آلاف الحارات الأخرى، وسيواصل نهجه التدميريِّ ضدَّنا جميعاً، حتى زواله؛ إن قررنا نحن ذلك... لاحقاً.

أصبحنا نتبادل الحكايات والأحلام معاً، كلنا ننتظر حلماً غالياً هو الحرِّية، عرفت هناك أية قيمةٍ كانت للحرية، عرفت هناك أن الحرية هي بحد ذاتها انتصارٌ على المكان والزمان والشخصيات وكل شيء، لم أكن أنتبه قديماً للحرية، لم أفكر حينها أنني حر وامتلك كل

قراراتي، مهما كانت ضعيفةً صعبةً مدمَّرةً، القراراتُ هنا مرهونةٌ وممنوعةٌ، قرارك الوحيد الحر هو تحدي السَجَّان بمواصلة الحلم، الانهزام داخل المعتقل هو نهاية أيِّ سجينٍ، ضغوطٌ عنيفةٌ كادت أن تهدَّنا في غرفنا الصغيرة وملابسنا الموحدة وطعامنا المسروق منا، ضغوط تحملناها بقوة الجيش العثمانيِّ الراحل، ضغوط واجهناها بأقوى من حسابات أبي حسانٍ الطويلة، لكنَّ الأمل ظل يخبو يوماً بعد يومٍ بسبب انقطاعنا عن العالم، لكلٍّ منا حلم، لكل منا معركته التي تركها في العالم الخارجي دون معرفةٍ بنتيجتها، كل منا له حكاياتٌ ظلَّت غيرَ مكتملةٍ حين توقَّفَ الزمان بنا، وأوقف حياتنا عند آخر لحظة من لحظات الحرية، الزمان تدخَّل الآن بالتوقف عن منحنا أي مكانٍ جديدٍ سوى الغرف المغلقة، كنا نشغفُ لأيةِ معلومةٍ من الخارج، عن أيِّ شيءٍ، عن كلِّ الأحبة الأوفياء في الخارج في جبال الشموخ والذكريات، هذا ما آلمني وآلم كل رفاق السجن الأوفياء، رفاق الأسر والحرية، رفاق الرغبة الجامحة برؤية كل أشجار الكينا في فِلَسطين.

ما كاد الأمل ينطفئ حتى عاد ليضيء قلوبنا من جديد، لقد تمكَّنا أخيراً من إرسال رسائلنا، طُلِبَ من كلٍّ منا خَطَّ رسالة واحدة فقط، وكان تسليمها لإدارة السجن في اليوم التالي، طُلِبَ منا خط رسائلنا أخيراً، بعد زوال غضب "آلهة السجن الصّنمية" (كما نطلق على إدارته كُرهاً وبُغضاً) عنَّا، نحن ممنوعون من الزيارات والتواصل مع العالم بأيةِ طريقةٍ، ممنوعون من كل شيء، ربما متابعة التلفاز أصبحت مسموحةً قليلاً كما غيرنا من الأسرى، ممنوع أن نعرف شيئاً عن الخارج حيثُ السِّجن الكبير المسمى "وطناً محتلاً"، اتَّهمونا بأننا نخطط لإزالة "دولتهم"، ما أجملَها من تهمة وأغباها من قِبَلِ مُتَّهِمِنا! إنهم في خوفٍ غريبٍ على دولتهم، يحسُّون بقرب زوالها، بل بالكاد لا يدركون موعداً لذلك، اتهاماتهم لنا كانت بحجم مدينة "صفد" المحتلة، بل تفوقُ أحياناً مساحة "الجولان العربيِّ" المحتل بكثيرٍ.

كانت ليلة للأحلام واسترجاع الذكريات، زوايا الغرفة صارت محجوزة منذ أول الليل، اختار كل منا زاويته ومكانه في الغرفة الصغيرة، وتحرك الحلم مجدَّداً فيه، واتَّقَدَ الشوقُ في عروقه ليكتب رسالته. كتبتُ رسالتي إلى ساحرتي الصغيرة، الحلم الذي لم يكتمل، فرسالتي لها ما كانت لتؤجل لفرصة أخرى بتاتاً، فقد لا يتكرر زوال غضب هؤلاء علينا، ولا يُكتب لنا إرسال رسالة جديدة إن طالت مدتنا وصدر حكمٌ علينا قد يطول، كنا نتمنى أن تُعقد جلسة الحكم ونرى أيَّ شخصٍ يحضرها من خارج سجننا، تمنينا أن نرى شخصا واحداً ممن يعيشون في الحرية، عشقنا اشتمام رائحة الحرية في ذلك الشخص ولو عن بعد، كان اشتياقاً غريباً للحرية ما توقعناه جميعاً، كان اشتياقاً غريباً للخارج، الخارج حيث الحرية الأقل تقييداً. كتبت لها

رسالتي المختصرة، ممنوع أن نطيل الكتابةَ، وممنوع أيضا أن نكتب أية تفاصيلٍ لا تعجب سجَّانينا الخائفين، لم يبق إلا أن يكتبوا رسائلنا بأنفسهم ليكتمل معنى التقييد! ويكتمل معنى خوفهم من مساجينهم (أسراهم)!

حَدَّدْتُ لحبيبتي مسارها وأعطيتها حرية الرحيل عن عالمي إن لم تكن قد رحلت بعد، رسالة لم تشابه رسالة الرد التي طمأنتني فيها، وأكَّدت لي انتظارها بكلماتٍ مكررةٍ تمنيت أن تواصل زجَّها في رسالتها كثيراً، ربما بعدد تكرار كلمة "ثوابت" في مسيرة نضالنا الفلسطينيِّ الطويل، رسالتي كانت تمنحها حرية الرحيل عن كل ما يذكِّرُها بوجودي، وتحلّلها من كل الذكريات، وتعطيها حق بناء أحلام جديدة بعيداً عن شريك الحلم الأسير الذي لم يعد يمتلك زمنه وذكرياته، بل وأحلامه أيضاً، قلتُ لها عباراتٌ اختصرت مسافات الحرية والأسر، ذكَّرتها بماضٍ قد لا يعود، وعن شواطئ حبٍّ لم تكن ذاتَ نهاياتٍ، وقررتُ لها الرحيل، كان أقوى من خيار، لن تُقْحَمَ في صراعٍ من أجلي يفنيها ويدمِّرني، صراع لن يفيدها مثلما الصراع الذي كانت ستخوضه هند، الآن صراع حبيبتي من أجلي لن يفيدني لأن القرار لم يعد بيدي أو بيدها، فعدونا هذه المرة عدو واضح وليس مجرد أفكارٍ خفيةٍ مجهولة، قلت لها عباراتي التي طارت معها كل أحزاني لأنني سطَّرتُ لها رحيلاً جديداً مُجبراً، ليظلَّ الأملُ يراودني طيلة مرحلة أسري عن حبيبتي المنتظرة، هل ستسأم يوماً من الانتظار الذي فرضته على نفسها مختارة؟ هل كان ردها (أنتظرك ..) حقيقيا؟ سؤال ظل يتردد صداه في نفسي،،، لسنوات!!

ساحرتي الصغيرة ... غاليتي ... ألفُ تحيةٍ لكِ:

كم قلتُ أني لا أحبك... لا أودّكِ! كي ترحلي عن طريقي الطويلة... أقسمتُ أنِّي لا أريدك... ونسجت من قصص الخيال حكاياتِ عشقٍ لفتاةٍ غيرك... لآلاف الفتيات... لمليون حواءَ جميلة... كي تهربي من وجهيَ المسجون... كي تهربي من قلب الحريق إلى جنةٍ أخرى غير جهنَّمي... فحلِّليني من فضائك... حلليني من قيودك.. أشعلي كل الحرائق في قوالب ذكرياتك تلك التي ملأت شواطئنا القديمة.

سأظل أجتر الحنين... وسأرسم وجهك في مخيلتي ... وسأهتف باسمك كل ليلٍ كل صبح... واكتب كلماتي الجميلة من بريق عينيك الجميل... إذ سيظل في عيني ذاك البريق... لله أيام لقانا... لله حين التقينا... حين اختبأنا وراء السحابات

البعيدة.. لله حين افترقنا.. حين ابتعدنا ولم أعد أراك... ولله لله قد طالت ساعات الفراق ... فارحلي حبيبتي وقرري ميلادك الحر الطليق...

حبيبك...

(الأســـــير)

٦- نحن هنـــــــا؛ لأننا لم نمت.

لم أكن منهزماً حين قررت التراجع، فانتصاري الأخير مع حبيبتي ما كاد يعلن، حتـــى عادت السيمفونية الحزينة تعزف من جديدٍ، بشكلٍ جديد، الرحيل يتكرر مجدداً، لكنه مختلـــف

هذه المرة، وأشد قسوة وضراوة، رحيل كما الموت، صديقي خالد رحل رحيله الأبديّ وصارت فكرته خالدةً كخلوده في اسم عبد اللطيف. أنا أجبرتُ على الرحيل، رحيل دون انتظارٍ للحظاتٍ وداعيةٍ قصيرةٍ، رحلتُ في نفس اليوم الذي التقيت به ساحرتي وقررنا بدء القصة، رحيلٌ كان في يوم انتصاري الكبير في معركتي الكبرى، قصة الجسد والفكرة التي لم تكتمل، وربما لم تبدأ، يواصل العدو ملاحقتي، عدوٌ جديدٌ وحقيقيٌّ كان عدوي، أدركت ذلك متأخراً، استحداثي لأعدائيَ السابقين كان مقدمةً لحربيَ مع عدوي الحقيقي وعدو الجميع، عدوي لا يبالي بي وبأحلامي، لم يبالِ أنني بدأت قصتي وقررت تنفيذ وعدي لصديقي الراحل، خطفني من بين تفاصيل رحلتي التي ما كادت تبدأ، حتى أنهى كل قراراتها المتخذة التي صارت معلَّقةً مجهولة المصير، كمصير ساحرتي الجميلة.

ما أجرأَ حبيبتي في كلماتها! وما أقوى تأثيرها في داخلي! ما أحلى ما خطَّ قلمها في رسالتها التطمينية! كانت حكايتي تولد في سجني من جديد، انتقلت مراحلي السابقة كلها لتستقرَّ في جسد فتاةٍ فائقة الجمال، أبو حسانٍ وأشياؤه كلها أُعيد تشكيله في جسد حبيبتي، حارتي القديمة المهدَّمة وجدتها في جسدها الأبيض الشفاف المُتخيَّل، صديقي الراحل وكل أحلامه، أطفالي الصغار كانوا هناك أيضاً، مدرستي وشجرة الكينا، كلُّ الأزمان الماضية والأمكنة، العثمانيون الراحلون وأحاديثُ جدّي الرمزية، حبَّاتُ الرمَّان على شجرة جدِّي المعمَّرة وجدتها تتدلى على صدر حبيبتي الفتيِّ، كل جغرافيتي أيضاً صارت في جسدها العاري، كلٌّ من رحل قديماً يستقرُّ الآن هناك في ذلك الجسد الغالي، أغلى الأجساد، لا أدري كيف ينبغي بي عشق هذا الجسد؟ فحكاياتي كلها ملكٌ له، كل شيءٍ صار يتمحور ويتشكَّلَ في جسد حبيبتي، الجسد الذي وددت أن أخوض معه معركة الميلاد، فاستعيد إصراري على مقاومة كل الأشياء التي هزمتني، الجسد الذي صار ممنوعاً علي مَنْعَ حريَّتي عني، الجسد الذي كنت سأقاتل به كل الأعداء لأنه يحمل كل أسلحتي، الجسد الذي قد أصنع به كل الرحلات المتبقية، أكثر من عبدِ اللطيفِ سيسكن جسدها الجميل، في سجني وددت أن أحمل جسدها سيفاً في وجه كل الأعداء، أن أغرسَ هذا السيف في باب السجن المقفل ليتسنى لي الهروب، الهروب منتصراً!! ستتوالى فصولي وتتشكل خريفيَّةً، لأرى نتيجة معركتي مع عثمانيين مفترضين، جسدها ظلَّ في مخيلتي حكاية، منحتني فرصةً جديدةً لإنهاء فصولي.

مراحلي كلها تشكَّلت واكتملت واستقرَّت خريفيةً، خريف البدايات والنهايات، المكان والخريف كانا أصل الحكاية وتفاصيل أحداثها، استقرَّ كل شيءٍ الآن للتفكير في المعاناة الطويلة، محوري كان خريفي، أكثر من أيِّ فصلٍ آخر، حكاياتي كلها ولدت في الخريف، لا عجب في فصل التجديد ما قبل الميلاد، تتشكل الحيوات كلها في الخريف وتنهمر في شتاءٍ طويلٍ وتولد

ربيعيةً جميلةً، نعشق ذلك الربيع كثيراً، ونستمتع بزهراته البنفسجيَّة، قصصي وجمال الربيع صُنعت خريفية، وولدت في حياتي مع ميلاد شخصياتي، حارتي الجميلة المهدَّمة وقصص أبي حسانٍ ولدت خريفية، ورحيله صار يُذكر خريفياً، أما ذكرياتي فكلها انتهت الآن، معي هنا في الأسر.

عشرون شهراً من الألم والانقطاع عن الحياة عشناها في قسوةٍ، منذ انتصاري في معركتي تلك مع حبيبتي، بَدَأَتْ قصتنا ورحلتُ بعيداً عنها، إلى مقبرتنا المؤقتة، عشرون شهراً قبل أن تصلني رسالة حبيبتي المطمئِنة، عشرون شهراً من الحسرة على ذكرياتٍ لن تعود، عشرون شهراً انتظرتُ كي أمنح حبيبتي حرية الرحيل... عن عالمي.

وصدر الحكم علينا أنا ورفاق الغرفة الصغيرة بعد أشهر طويلة من المعاناة، بعد رسالة حبيبتي الغالية التي قرَّرتْ فيها الانتظار بعباراتٍ أيقظت في أعماقي فكرة جسدها المتموِّج، رسالة حبيبتي تزامنت مع الحكم علينا، رسالة حبيبتي كانت حكماً لي بموعدٍ مع الحرية، خرجنا إلى المحكمة التي قررت إدانتنا بتهمةٍ سخيفةٍ، ربما لا تتعدَّى –من منظورنا– البحث عن حرية شعبٍ، لم تهمني تلك اللحظات بتاتاً، فأنا أتوقع منهم هذه العزلة الطويلة علينا لأننا رفضنا فكرة الأسر بحد ذاتها، ورفضنا محتلَّنا أكثر، أصبح الحكم علينا ضرورياً، وصدر حكمٌ كأنه لا يعنينا في شيء، فلا شرعية لمن يحاكمنا وحكم التاريخ عليه سيكون قوياً، لم يعنِنا الحكم، لأنه أقلَّ من استحقاقه ذلك، طلب القاضي قبيل نطقه بالحكم تعليقاً من المحكومين، رفضنا التعليق، كلنا رفضنا، أنا ورفاقي الأسرى، ذكَّرنا المحامي مُسبقاً بضرورة إظهار الندم تجاه دولتهم كي ينظر القاضي بالتخفيف علينا إن رآنا صادقين، شعرنا بغباء هذا المحامي رغم احترامنا له، هو يريدنا أن نعتذر عن رغبتنا الجامحة في تذوق لحظاتِ الحرية لشعبنا من أجل لحظاتٍ من الحرية لنا، نحن الرهط القلَّة، بضعة أفراد كنا من أجل شعبٍ، يريدنا محامينا أن نأسف لدولةٍ لا نعترف بأصل وجودها هنا، يريدنا أن نسترحم قاضياً فَقَدَ مكانته الأخلاقية لدينا قبل أكثر من ستين سنة...!

نطق القاضي حكمه الجائر، ونِلْتُ ستين شهراً، الأرقام باتت لا تهمّني، فكرة الصمود اشتعلت في داخلي في قاعة المحكمة، رفاقي اقتربوا مني في حكمهم أيضاً، ستون شهراً قضيت منها عشرين وربما أكثر، صدر الأمر كذلك بمغادرتنا قاعة المحكمة إلى السجن، وشعرتُ حينها بطول فترة السجن، كأنني الآن أدلف إلى القبر بوعيٍ تامٍ رغم شعوري بحبِّ الصمود، كأنني أعبر إلى نهاية حياتي، شعرت حينذاك أنني أتَّجه لسجنٍ، وخبا الأمل مجدداً، شعرت بعدم قدرة قدميَّ على حملي، بسرعةٍ خبا الأمل بعد الرغبة الجامحة في الصمود، فهل حصلت الهزيمة

أخيراً؟ سألتُ نفسي في هذه اللحظات الحاسمة المؤلمة في الطريق إلى السجن، ربما حانت لحظات الهزيمة، ولا وجود لعبد اللطيف الآن لينقذ الموقف، كما أنقذه سابقاً، بالتأكيد هنا لا يوجد عبد اللطيف المنقذ في لحظاتٍ تمنيتُ فيها أن أسمع صوته يناديني مجدداً، ليمنحني الأمل فقط، ليذكرني أنه موجود وليس سجين مثلي، خبا الأمل كثيراً قبل أن يعاود التململَ في أعماقي، إشعاراً ببقائه على قيد الحياة.

وصلنا الأقفاص واقتربنا من غرفنا المعتمةِ مجدداً، الأقفاص حيث آخر أملٍ للحديث مع غيرنا من سكان السجن فاقدي الحرية، وقفنا ننتظر في هذه الأقفاص، قد ننتظر مُدداً طويلة قد تستمرُّ لساعاتٍ حتى يتم إدخالنا مجدداً، تذكرت الربيع الجميل الذي أفتقده، تذكرت المطر المنهمر على جبال قريتنا، تمنيتُ أن أقف عارياً تحت المطر واحتضن شجرة الكينا في مدرستي الحبيبة حتى الصباح، تمنيت أن تُزهر كل بساتين الدنيا وتصبح كل بحور العالم عِطراً وأطير مع حبيبتي على حصان الفارس المقاتل بعيداً، تمنيت أن يعديني الزمان للحظاتِ ما قبل الرحيل، كلُّ رحيلٍ جرى في حياتي، تمنيت أنني أجلس تحت شجرة الرمان في صيفٍ حارٍ، وآكلَ حبَّات الرمان اللؤلؤية من يدِ جدي الحنونة، تمنيت أنني أغفو على صدر حبيبتي تطعمني حبات رمان جدي، وتتحسَّسُ فمي المليء برمَّانها.

وبدأت تخيلاتي الربيعية الجميلة في تلك الأقفاص الحقيرة، تذوقت فيها طعم الحرية في لحظات السجن المريرة الطويلة، تخيلت أنني أغفو على صخرةٍ عاليةٍ على قمة جبل "عين عينا" المتعالي بشموخ البطولات التي لا تنتهي لمناضلينا الأحرار، أسمع تغاريد الطيور فرحةً بالحرية وأكاد أغرِّد معها، أرى بيوت قريتي المتلاصقة من أعلى الجبل وأتخيَّل الحياة التي تَعُجُّ داخل تلك البيوت، أطير فوق تلك البيوت وأهبط في منزل حبيبتي لأراها منتظرةً بحبات الرُّمَان تلك، وتطايرت أمنياتي في عالم الأحلام هنا في قفص الانتظار الصامت، في قفص الانتظار المهين، نظرت إلى قريتي من قمة الجبل العالي، إنها أشبه بسفينةٍ قديمةٍ ترسو من زمنٍ نجهله، ربما كانت سفينةً قد رست منذ آلاف السنين على شاطئ من الشواطئ، رست رسوَّها الأخير، جف البحر وراح الشاطئ إلى غير رجعة، وبقيت السفينة شاهدةً على أفعال ساكنيها عبر العصور، ربما تسجل سفينتنا كل أفعالنا عبر العصور، ربما تفرِّق أيضاً بين المناضل والخائن، وبين الاحتلال والشعب المحتل، وتعرف في نفسها أي شعبٍ هو صاحب الحق....!

استمرت مشاهد الحرية الجميلة في قفص الانتظار الصغير تجول في مخيلتي، عشت معها واقعاً مفترضاً، خلقت نوعاً من الحرية في داخلي، تذكرت البحر البعيد، البحر الأبيض

المتوسط الذي نراه من قمة جبلنا العالية في الأجواء الصافية، بحرٌ نتمنى أن نراه عن قــربٍ، عشقنا هذا البحر كثيراً رغم أننا محرومون منه... فلا يمكن لنا الوصول إليه بســبب طــارئ الاحتلال، ومع هذا أجد هذا التعلُّق بالبحر... ليس وحدي من أحبُّ هذا البحر وأتعلَّقُ به، أهل قريتي جميعاً يعشقونه وربما شعبي كله، وددت لو كنا أحراراً نستطيع رؤية البحر، وددت لو نتحرر يوماً ما ونستطيع الجلوس على شواطئه الممتدة، لنحدثه بقصصنا ومعاركنا مع الحياة، الحرية قادمة فعلاً، هذا ما أستطيع تأكيده، لكنني لا أضمن توقيته، التوقيت الذي نصلّي كــي يخدمنا يوماً ما، كم جميلة هي تخيلاتي! الحرية ورؤية البحر عناوين لقصصٍ تعــيش معــي هناك... في السجن الحقير الزائل.

طافت في خيالي كلمات عشقتها عن حبيبتي والبحر، كلمات رددتها لحبيبتي ليلــة الانتصــار والفراق، اقتبست منها عبق الذكريات وسحر الكلمات، حباً فيها وفي البحــر البعيــد، أبكتنــي كثيراً في أقفاص عدونا المتكسرة يوماً ما على رأس محتلنا، كلمات كما سحر جبلــي العــالي وأمواج البحر البعيدة، كلمات شعرت أنها تحققت هنا في فراق السجن الأليم:

كان رحيلكِ
عندما حنت الشمس قامات الزروعْ
وعندما كانت ترانيم السواقي
تحدث الجبال عن الرحيل والرجوعْ
وسحر المساء – وهيبة السكونْ
فكيف تريدينَ لهذا الحب أن لا يكون؟
وكيف؟
تحاربينَ البحر الذي أعشقه لأجلكِ
ثم تبعثرينَ فيه حزناً وشجونْ
***
للبحر زوارقه الصغيرة
تداعبها الأرياح ثم تذوب
للبحر روايته الأثيرة
تثرثر للدجى في كل الدروبْ
أين أنتَ أيها الحبيبْ؟
أين أنت يا شمس المغيبْ؟
هل تخذتَ البحر صومعة لذاتكْ؟

وتعبدتَ بجماله– ونفختَ فيه آهاتكْ....
وصرختَ– كم صرختَ
بعد أن هجرتكَ كل المسالكْ
وجلستَ في المغيب كأصدافٍ ورمالْ
وتتبعتَ الزرازيرَ– وتتبعتَ المحالْ
****
للبحر نوارسه الكثيرة
ترفرف كغيم أو كسحابْ
للبحر ألوانه النضيرة
تنبثق وكأنها من سرابْ
قل هل في البحر نوارسْ؟
تبث حباً في كل اتجاه
قل هل في البحر نوارسْ؟
ترشد الحبيب الذي تاه
****

أفقتُ من تلك الأحلام الوردية على هِزَّةِ رفيقي، تألمت لأنه أيقظني من أحـــلام الحريـــة ورؤية الورود والربيع، تألمت لكوني لست حراً كما أحلم، أفقت جِدِّياً حين أشار رفيقي لرجلٍ أسيرٍ مثلنا ينتظر معنا في القفص، كان رجلاً في الخمسين، صلابته واضحة في ملامح وجهه، عتمة الأقفاص لم تمنع تدفق شلال من الآلام من بين جوانحه كدنا نتحسسه، لمحت حُزْناً دفيناً في عينيه رغم قلة الضوء، لم أعرف هذا الرجل إلا عندما ذكر رفيقي اسمه:

- هل تعرف ذلك الرجل؟ إنه أبو العوض (وأشار رفيقي لذلك الرجل).
- مين أبو العوض؟
- في حد ما يعرف أبو العوض، بطل مجموعات الفهد الأسود.

كان ذلك الرجل الجالس في القفص شاخصَ البصر نحونا، لم يتفوَّه بكلمةٍ واحدةٍ ونحن نتحدث عنه، سمعت الكثير عن هذا الرجل سابقاً وقرأتُ عنه كذلك، لكنني أراه للمرة الأولـــى في حياتي، وكم كانت لحظاتٌ للتاريخ! إنني أقف الآن مع ركنٍ من أركان رغبتنـــا الجامحـــة للحرية، أبو العوض عنواناً لا يُنسى للفهد الأسود، تلك المجموعة التي بلغ سيطها في "انتفاضة الحجارة" عنان السماء، واسم أبي العوض تردَّدَ طويلاً وأرعب الأعداء كثيراً، تردد قديماً فـــي

أحلامي أيضاً، بطلٌ آخر من أبطال أعماقي قُدِّرَ لي رؤيته واللقاء به في مكانٍ لـــم أكـــن أَوَدُّ لقاءه فيه، لكن اللقاء حصل، قفزت لذهني تلك المقتطفات التي قرأتها عنه، شهرته انطلقت من قريةٍ صغيرةٍ كانت عنواناً لمجموعته وتوسعت في كل أرجاء الأراضي المحتلة، نجا من عدة محاولات اغتيالٍ وتصفيةٍ، لكنَّ رفاقه تم تصفيتهم، قفزت لذهني تلك الأسماء التي لا تنســـى: محمود الزرعيني، إبراهيم الفرقع، وأحمد الجمل. وحدَّقتُ طويلاً في أبي العوض، فهو الوحيد الذي يمكنني أن أراه من كل تلك الأسماء التي كانت أبطال تجربتنا النضاليَّة بشكلها الجديـــد، كان أبو العوض ورفاقه يواجهون أكثر من محتلٍّ، كانوا يواجهون من يتعامل مع المحتل أيضاً لخطورة هؤلاء على أمننا الداخلي، وكانت مهمتهم أكثر خطورةً من مواجهة العدوِّ الواضـــح، حدَّقتُ في أبي العوض الذي لن أراه ثانيةً بالتأكيد، كعادتي فيمن أحب..! حدقت به طويلاً أكثر من تحديقي بهندٍ كثيراً.

كان رجلاً مناضلاً ولا يزال، محكومٌ بالمؤبَّدِ لعدة مراتٍ، من النادر فعلاً أن تســـتطيع رؤيـــة سجينٍ مثله، هؤلاء المحكومون بالمؤبد لن تراهم أبداً، إلا في صدفةٍ تاريخيةٍ كهذه، نظرت له مليَّاً وفكرت في تفكيره العميق، لم أتوصل لنتيجة فقررت محادثته –إن قبِلَ–:

- كيف حالك أخ أبو العوض؟
- أهلين يا ابني، إنت تعرفني (ردَّ بنبرةٍ حزينةٍ كحزن عينيه).
- كل فلسطين تعرفك وتعرف بطولات الفهد الأسود.
- هذا الكلام من زمان يا ابني، وين كنا ووين صرنا!! (قالها بحسرةٍ غير خافية).
- من وينتا أنت في الأسر.
- يا ابني، اعتقلت في ١٩٩٣/٩/٣٠، وحدي اعتقلت في ذلك السرداب في قرية الكفير، البقية كلهم هناك، في الجنة، بس أحمد عوض كميل معك هون من كـــل المجموعـــة، فالكل راحل، ونحن ننتظر الرحيل.
- كلهم شهداء إذن...
- نعم يا ابني، تأكَّد: "نحن هنا، في هذا السجن... لأننا لم نمت".

٧- الحرية... والمعركة المستمرة !!

كم أرعبتني عبارة أبي العوض الأخيرة كثيراً! كانت أشبه برسالة تأريخٍ لحياة مناضل، وربما لكلِّ مناضلٍ، إما أن يكون هنا في الأسر، أو هناك... في القبر، هكذا يتعامل عدونا مع كل من يعتبره مخرِّباً (لفظٌ يعني مناضلاً في لغتنا النضاليّة!)، إما أن يبعده عن ناظريه إلى الأبد، وإما أن يبقيه تحت ناظريه هنا في السجن حتى يموت. كأن أبا العوض يريد أن يقول إننا إن لم نكن هنا في السجن، سنكون أمواتاً مع من ماتوا ورحلوا، مع كل المناضلين الراحلين، فجميع رفاقه في النضال صاروا من سكان المقابر، أما هو فقد نجا من الموت وجاء هنا حيث الموت البطيء، سنوات طويلة قضاها في الأسر الذي لن يخرج منه -بحسابات عدوه على الأقل- فحكمه في الأسرِ أبديَّاً، أكثر من خمسة عشر حكماً مؤبَّداً سيقضيها في الأسر، حتى بعد موته سيظلُّ أسيراً ... لعدوٍّ لا يرحم.

اختصرت عبارات أبي العوض القصيرة رمزيَّةَ جدِّي في الحكم على العثمانيين بعدم الهزيمة واختصار أبي حسانٍ في توجيهي، لا أدري إن تَفَوَّقَ أبو العوضِ وغيره من الأسرى على قصص الأسر العظيمة في التاريخ، لا بدَّ أن (نيلسون مانديلا) أدرك أي شعبٍ صامدٍ نحن، وكم (أبو العوض مانديلا) في الأسر! حوارٌ لم أستطع إكماله مع أبي العوض لأنه ختمه أيما ختام! وجعل نهايته مفتوحةً على كل التوقعات، لقاء وحوار مع أبي العوض لن يتكرر أبداً، فقد تفرَّقنا بعد حوار القفص الذي لن يُنسى. أبو العوض كان بطلاً حقيقياً آخر في داخلي، بطلاً لا يُهزم رغم هزيمته الظاهرية، قارنت بينه وبين أبي حسان ووجدت فارقاً شاسعاً، أبو العوض بطل لا يهزم، وأبو حسان البطل الذي هُزِمَ بمرور الزمن، أبو العوض مَثَلاً يُحتذى به لكل من يحبُّ أن يرى وطنه محرَّراً، وأبو حسانٍ مثلاً لمن فرَّطَ بوطنه -ربما مكرهاً- ولم يفكر في استعادته، أو حتى التفكير به يوماً ما.

صار السجن حكايتي الصعبة، طالت لحظات انتظاري وأصبحت سنواتٍ، كل يوم أعيد تشغيل مسيرة حياتي الصعبة كشريطٍ سينمائيّ، صرت كأبي حسانٍ كاتب السيناريو الذي يستعد لتصويره بنفسه، وددتُ كثيرا أن أعرف كل ما يجري في الخارج، حيث الحياة والحرية، مللتُ من انتظار المجهول، ما أقسى السجنَ! تتوقف لحظات حياتك عند اللحظة التي تسجن فيها، لا أخبارٌ ولا أشياءٌ من الخارج سوى ما يرغب عدوك بإيصاله إليك، رسالة حبيبتي صارت هي الأمل الذي تعكَّزْتُ عليه في سجني الطويل، وكلمات أبي العوض المناضل ظلَّت تتردد في أعماقي، في كل أحلامي القديمة، صارت رمزيةُ عباراته تحكي لي الحكايات الطويلة، اندماجٌ

للوصايا كلها صار يتشكَّل في سجني، نحن هنا يا مناضل، هكذا تصورت حواري المفترض الطويل مع أبي العوض، صار يطول حواري معه يوماً بعد يوم، ويعطيني وصايا في حب الوطن والحرية، أُسِرْتُ لأبي العوض رغم أنه أسير مثلي الآن، ولعدوٍّ واحدٍ، ولهدفٍ واحدٍ أيضا، صرت أسيراً لأكثر من جهةٍ، أسيراً لأعداءَ ولمناضلين أيضاً، أسيرٌ لا بدَّ أن أُفرِّقَ بين عدوي وقدوتي... وطالت ليالي السجن كثيراً.

عقدت في سجني مقارنات طويلة، فوبيا للربح والخسارة أصابتني وأنا أسير، لا أدري هل خرجت رابحاً بعد تجربتي الطويلة تلك أم كنت الخاسر؟ وربما الخاسر الوحيد، لم أعد أعرف، في كل يومٍ أعيد بث شريط حياتي المذهل، منذ حواري القصير لأبي حسانٍ في مكانه المميز إلى لحظات سجني، وربما حتى حواري لأبي العوض في قفص عدوي، هكذا كانت قصتي الطويلة، من حوارٍ إلى حوارٍ، حوار في الحرية مع أبي حسان، وحوار في الأسر مع أبي العوض، حوار أبي حسان كان نصيحة عملت بها، لكن صاحبها ما لبث أن هُزِمَ، وحوار أبي العوض كان ملَخَّصاً لحكاية كل مناضل، حوارٌ مؤلمٌ بات صاحبه منتصراً من وجهة نظر شعبه، كلمات لأبي حسانٍ كانت رائعة حملت في حروفها مأساة راحل منهزم، وكلمات لأبي العوض كانت حقيقة واقعة تصف حياتنا الصعبة، لم يكن أبو العوض مستسلماً في كلماته رغم أنها صدرت في أسر لعين، أراد أن يصف الوضع كما هو دون أن يزركش كلماته وينمِّقها، كيف سيزركشها ونحن معاً في أسرٍ؟ أبو حسان نصحني في أجواء من الحرية، وربما باعني كلاماً وهرب كزعماء السنوات الطويلة، الذين يحاولون زركشة كلامهم بعد ثورة شعوبهم الجبارة بلا فائدةٍ، أبو حسان فرَّ من مواجهة الشعب الثائر عليه دون أن تُعرف جهته بتاتاً، أبو العوض لم يفر وشعبه ينتظره.. إن بقي للقاء أي وقت.

ما أقصر رحلتي! حُصرت تلك الرحلة بين حوارين قصيرين، رحلة الحوارين القصيرين، مع شخصين مختلفين في تقديمهما للواقع الصعب، ما أغربَ كل حوار! وما أقصره! امتزجت دلالة كل حوار مع حالات سجني ورفاقي، كنا نفرح ونقيم الأعياد في سجننا عندما يسقط المطر، يركض السجناء تجاه ألواح (الزينكو) في أطراف القسم كي يسمعوا أصوات المطر يضرب هذه الألواح بقوة، يبكون فرحاً لسقوط المطر وأبكي معهم ألماً على حرمان رؤيته يتساقط منهمراً علي في كل أمكنتي الجميلة الغائبة، أبكي لفقدان قطرات الحب تنهمر في ساحة مدرستي البعيدة وعلى شجرة الكينا، بكيت لعدم زيارة شجرة الكينا مراراً بعد فراقي عن صديقي، وددت لو زرتها آلاف المرات واستمتعت بها قبل هذا الأسر المفاجئ، ما أجمل المطر الذي ينبت ربيع الذكريات الطويل! وما أقسى كل خريف مرّ على سنواتي الطويلة في

الأسر! الخريف الذي عشقته بسبب تجدد حكاياتي التي لا تنتهي فيه، الخريف الذي أشتاق فيه لكل الراحلين وكل قصصهم وأشيائهم، الخريف الذي كان عنواناً للتجديد، لي ولأوراق الأشجار المُصفرّة...

ما أصعب أن تشعر بخسارة كل الأحلام والأمنيات! هربت كل الأحداث عن واقعي وصرت مجبراً على الحياة في أسرٍ قتل كل الأحلام، لم أعد أعرف تقييم مرحلتي من سجني، ظلت تراوحني لحظات الربح والخسارة المتتالية، لم أصل لنتيجةٍ فعليةٍ بعد، كنت الرابح دائماً رغم الخسارات الكبيرة، وصرت الخاسر في سجني رغم أنني الرابح بأفكار أبي العوض النضالية.

قُدِّرَ لي بعد شهور من حواري مع أبي العوض أن أحدد موقعه، عرفت مكانه في أيِّ سجنٍ وأيّ قسم، هذا ما عرفته عنه فقط، لم تكن هذه المعرفة بالأمر العاديّ بالنسبة لي، رغم بساطتها، عرفت مكان بطلي هذا بينما لم أعرف مكاناً لأبي حسان إطلاقاً، تصوراتي في السجن كانت غريبة وحساباتي صارت أغرب، تداخلت الرؤى والأفكار في تفسيرات واقعي، بحثتُ كل شيء في تفكيري الطويل أنا ورفاق السجن والمرحلة الذين سيُحفرون في ذاكرتي للأبد، رفاق المرحلة الصعبة. أبو العوض وحواره الشهير سيكون عنواناً لي ولكل من سأعاود تعليمه في وطني، في كل المدارس، مدارس تاريخنا وقضيتنا المصيرية، تعاليم أبي العوض باتت في عنقي، كل الأجيال يجب أن تعرف من كان أبو العوض؟ وأين هو الآن؟ ولماذا؟ تألَّمت لأن هناك الكثيرين من أبناء وطني لا يعرفون من كان أبو العوض؟

حنيني لكل ذكريات رحلتي كان قوياً، لياليَّ الطويلة صارت بطعم الدمع الحار الحزين، بكيت شوقاً وألماً، لا بدَّ أن حبيبتي المنتظرة قد ملَّت انتظاري الطويل، رغم رسالة التطمين القديمة التي هونت عليّ أسري، لا أدري أيَّ رحلةٍ صارت تعيش حبيبتي، لكنني منحتها الحرية قبل أن تقرر الانتظار، ولا زالت الحرية ممنوحة لها بحق الرحيل. ربيع الذكريات الناعم دغدغ الآم سجني القاسية، ذكريات أبي حسانٍ الطفولية الجميلة ورموز جدي الحكيم كانت ذكريات لا تموت.

أفقت من ذكرياتي المتشعِّبة على خبرٍ أنتظره عن أبي العوض المناضل، وأيّ خبر!! حلوى وصلت إلى القسم مؤخَّراً لتوزَّعَ علينا، إنها "حلوان" تخرج ابنته أنصار، ابنة المناضل أبي العوض قد تخرجت من كلية طب الأسنان أخيراً؛ وأصبحت طبيبة، الطفلة التي تركها والدها الأسير بالكاد رأت الحياة حين سجن قد أصبحت طبيبة، أيُّ فرحةٍ وأيُّ حزنٍ ارتسم على وجه أبي العوض؟ بكيت شوقاً للحرية بعد هذا الخبر المفرح المحزن، أيُّ ألم يلاقيه أبو العوض

لغيابه عن كريمته التي حققت حلمه الذي طال؟ وأيُّ فرحة بتخرجها؟ تناولت الحلوى من رفيقي، واحتفظت بورقة غُلِّفَتْ بها قطعت الحلوى... للزمن القادم، ودونت عليها تاريخها:(٢٠١٢/٧/٢١).

تخرج ابنة هذا المناضل هزَّني بقوةٍ، تألمت كثيرا على رفاقي الأسرى، خاصةً أولئك المحكومين بأحكامٍ عاليةٍ، وما أكثرهم! أكثر من حكمي البسيط، مدتي بسيطة رغم طولها، أما هؤلاء فهم ينتظرون الموت أو انقلاب في التاريخ يحررِّهم، كما حرر بعضهم في (صفقة شاليط)، كانت انقلابا جميلا في التاريخ، حرر بعض المحكومين بأحكام أبديّة، ولكن ظلّ بطلي أبو العوض أسيراً :

- من أين نأتي بانقلابٍ جديد يا أبا العوض؟!

هكذا حدثته بيني وبين نفسي، كانت تلك الصفقة فرصة تاريخية للحرية، لا تتكرر إلا نادراً، لكنّ أبا العوض لم يرد على تساؤلي، بقي أبو العوض صامتاً، ربما اكتفى بالحوار الحقيقي الذي دار بيني وبينه في الأقفاص، الذي علّمني فيه أن الحرية فرصة نادرة لكل أسير هنا، وربما يريد أن أكتفي باستنتاجاتي التي تؤكد أن انقلاباً ما هو الذي سيحرر الأسرى، كما انقلاب شاليط، الذي وددت أن أعرف هل يعتبره بطلي انقلابا!!

ما أعظم التاريخ! وما أعظم بطلي الأسير! تأكدت من ذلك حين قرأت خبراً في الجريدة عن تخرج ابنته، عثرنا على الخبر في أحد أعداد الجريدة بعد مدة من "الحلوان" الشهير بتخرجها، قرأنا التقرير الصحفي عن هذا الحدث الكبير وفرحنا، فرحنا وبكينا وانتصرنا مع أنصار الطفلة الطبيبة، أنصار رمز البطولة والصمود في الجيل الجديد، أنصار؛ ذلك السجن الذي كان يقبع فيه والدها المناضل حين جاءت إلى الدنيا، سميت أنصار على اسم ذلك السجن الشهير، أنصار رمز صمود كل المناضلين الشرفاء، تتكرر مجددا حكاية الأسماء والرموز، عبد اللطيف اسم نُقل في دواليب الكون ليستقر في حياة جديدة يرمز للبقاء والديمومة، أنصار اسم حفر بعد معارك المعاناة الطويلة لكل المناضلين الفلسطينيين الأسرى، نقل الاسم أنصار ليعيش مجدداً ويسجّل أجمل الصفحات الأسطورية لشعبنا الذي لن يستسلم...

حيرتني راديكالية الأسماء وطريقة انتقالها عبر كل معتركات الحياة، أعجبني أسلوب حياة هذه الأسماء وطريقة انتقالها عبر الزمان والمكان، لا أدري إن كانت تنتقل بشكل فوضوي أم وفق ترتيب يعدّه طرف ما يحارب معنا عناصر القصص والحكايات، هذا التكرار للأسماء يجعلني أغيّر طريقة نظرتي للحياة، هو تمسك بالأصل والجذر وعودة مستمرة إلى ماضينا المشرف،

هذا التكرار في الأسماء مطمئن، ربما لأنه يعطينا دفعات معنوية هائلة في حياتنا الصعبة، ويؤكد لنا أن نضالنا لن ينضب، وسنظل نعاود السير على نهج المناضلين الأولين، بتكرار أسمائهم في ذوات أخرى، باتت الأسماء هي العهد بيننا وبين أنفسنا أننا لن ننسى؛ رغم العذاب والتفرّق والألم.

أهدت أنصار التخرج لوالدها الأسير، قالت له في الجريدة أنها أرادت أن تحقق حلمه، وذكّرته ببطاقة معايدة قديمة أرسلها لها وكتب فيها: "إن شاء الله بنشوفك أحسن دكتورة"، قالت له إن تلك الجملة القصيرة هي سبب إصرارها على النجاح والتخرج، وأخبرته أنها عانت الكثير بسبب فراقه الطويل وكانت تحلم أن يكون بجانبها عندما تتخرج... طال الحوار مع أنصار عن أشواقها لوالدها وتمنت أن تراه حراً عما قريب، طال الحوار وطالت أمنياتنا في غرفنا المغلقة، تذكرت معاركي مع الزمان والمكان، تذكرت مجدداً بطلي الأسير الذي ما خنع يوماً، تخيّلتُ دموعه تنهمر بلا توقف عندما يقرأ ذلك التقرير الصحفي، تخيلته يحتضن الصحيفة ويصيح أنه انتصر مع أنصار، وسينتصر على قضبان السجن بالتأكيد، لا أدري لم تخيّلته مستمرّاً في الصمود الأسطوريّ بلا توقف؟... لا أدري فعلاً.

ما جرى لأبي العوض في سجنه كان عظيما بالنسبة لي، ما أجمل تحدّي الواقع! وما أطيب طعم الانتصار! انتصر أبو العوض بانتصار ابنته الغالية أنصار، أنصار التي غاب عنها والدها في كلّ مراحل حياتها، كان بطلاً مُغيباً، تحدّاه الزمان وغيبه عن كل شيء، لم يكن كأبي حسان الغائب، لم يختر هو غيابه، بينما اختاره أبو حسان، هرب أبو حسان وغاب عن كل شيء ...

كررت (كعادتي) قراءة الخبر الجميل عن تخرج أنصار، أعجبني فيه قرارها الذي اتخذته بعدم المشاركة في حفل التخرج بسبب غياب والدها الأسير، لكن موعد زيارته والدها كان قبيل حفل التخرج، أصرّ هذا الوالد العظيم على مشاركتها في الحفل والفرح رغم غيابه، قالت أنصار أن ذلك الحفل احتمل أصعب لحظات حياتها، حين انفجرت باكية مع جدّها ووالدتها مع لحظاته الأخيرة، كل المشاعر اختلطت معاً في تلك اللحظة وكونت الأسطورة، أسطورة أبي العوض التي لا تنسى...!

موقف آخر كان الأكثر إيلاماً على أنصار، عندما رأت أحدى زميلاتها تلتقط صورة تذكارية مع والدها، أحسست بالمرارة والألم، تمنت أن تهدّم كل السجون ويشطب مصطلح "أسير" من كل ثقافتنا وتاريخنا، ربما سنستسيغ مصطلح "أسير محرر" لأنه يحمل معه عبق الحرية

والمستقبل، مواقفٌ لأنصارٍ الطبيبة آلمت كل الأسرى وشعر كل أسير أنــه وأبــي العــوض شخص واحد، توحدنا كلنا مع أبي العوض، صرنا كلنا شخص وأمنية، بتنا كلنا فكرة لا تزول ليس لها إلا عنوان واحد :(أبو العوض كميل).

خبرٌ آخر فاجأني كثيراً قبيل انتهاء سجني اللعين، خبر وصل لي بعد خمس سنوات إلا قلــيلاً في أسرٍ مرٍّ، خبر جعل دموعي تظل منهمرةً شوقاً وحباً ثلاثة أشهر، هي الشهور المتبقية في مدة سجني الطويلة، فاجأني الخبر وأفرحني كفرحة أبي العوض بتخرج ابنته، وأحزنني كثيراً أيضاً، لكن ليس كحزن أبي العوض على فراق ابنته في يوم تخرجها، أحزنني بسبب غربتــي الطويلة عن واقعي الحر، أفرحني الخبر كثيراً جداً. خاطرةٌ أدبيةٌ بسيطة كتبت في صــحيفة، رفيقٌ من رفاق الأسر سمعته يصرخ عليَّ وينادي ونحن في الساحة أو (الفورة) كمــا نســمي فترة الاستراحة القصيرة، ربما تشبه استراحة المدرسة أو الفسحة التي تمنح للتلاميذ، نــاداني متلهِّفاً، وهو يحمل تلك الصحيفة:

- اسمك في الجريدة، شو صاير مهم وأنا مش عارف (حدثني بسخرية).
- خير، شو في، الله يستر من أخبارك (أجبته والتلهف بادياً على محيَّاي).
- في واحد كاتب قصيدة في الجريدة، ذاكر اسمك، والله مش قليل إنت.

تفاجأتُ كثيراً واستغربت، ربما شاعر من شعراء قريتنا أهداني قصيدته، وما أكثر الشعراء في قريتنا! أو لربما زميلٌ من زملاء العمل يهديني كلماته. تناولت الصحيفة وقد دارت في عقلــي شتى الاحتمالات في لمح البصر، كانت الصحيفة قد صدرت قبل شهرٍ على الأقل، كعادة إدارة السجن في منع الصحف الحديثة عنا، يرسلوها لنا بعد دراستها مليَّاً ويقضِمون منهــا الشــيء الكثير. وقع نظري على الصفحة المحددة، رأيت صورةً طارت معها دموعي فرحاً وشــوقاً، صورة قفزت لداخلي بما تبقى من ذكرياتي القديمة، شخصٌ أعرفه ولا أعرفه بحاجــةٍ لتأكيــد اسمه فوراً، وكان اسماً لطالما عشقته، اسم حُفِرَ في قلب صديقي الراحل خالد، خالد الذي خَلَّدَ اسمه في هذا الاسم، وأحببناه معاً، عشقنا هذا الاسم وقررنا تركه في جسدٍ آخر، اسم لم يُقَــدَّرْ لي بعد حفره عميقاً في داخلي، وفي جسد حبيبتي الرقيق، قرأت اسماً لم أكمله لشــدة بكــائي، وكان ذلك كافياً لأجد مراحلي تتشكل من جديدٍ، عبدُ اللطيفِ....

بدأت تتشكل مراحلي مع اقتراب رحيل الأسر عن حريتي، اسم جعل أحلامي تنمو من جديــدٍ كعادتها عند اقتراب الاستسلام، عبد اللطيف استطاع أن يُنقذني من جديدٍ في سجني، ما أقوى هذا المارد! لقد نفذ إلى السجن ليضرب كل محاولات استسلامي عرض الحائط، يذكِّرني بطلي

هذا من جديد أنه لا يزال موجوداً، لقد تفوَّقَ على فقداني للأمل ساعة ظهوره، لقد ظهر عبد اللطيف... مجدداً، لقد شعرت في سجني بأنني الرابح، لقد كنت رابحاً بكلمات عبد اللطيف المهداة، كنت رابحاً فعلاً، أنا الرابح الآن، أنا من صنع كل رحلات المستحيل الطويلة، لكن تفكيري الواقعي هَدَّ معنوياتي بعيد ذلك وجعلني أشعر بالخسارة، فراقي لشجرة الكينا وهؤلاء الأطفال جعلني أخسرهم، شعرت بالخسارة، ليس بسبب فراق السجن الإجباريّ، شعرت بخسارتي لأنني ابتعدت عن كل أحبائي مختاراً، بعد رحيل صديقي خالد، خسارة وربح تتكرر كل ثانية من مداد عمري، ربما الربح والخسارة يتكرران مع تكرار الثواني في حياتي، وستقف الحياة يوما ما عند واحدٍ منهما بالتأكيد، هذا ما تخيلته في غمرة فرحي وحزني واشتياقي.

كان عيداً لا يُنسى حين أهداني عبدُ اللطيفِ كلماته، تقبلتُ التهاني في غرفتي ووزعت الحلوى، كانت مناسبةً عزيزةً على قلبي، كانت مناسبتي أنا، احتفظت بتلك الصفحة من الجريدة للأبد، ووزعت حلواي الخاصة، كانت مناسبةً مهمةً بالنسبة لي كتخرّج ابنة أبي العوض، ثلاثة أشهرٍ عشتها في فرحةٍ وألمٍ، ذكرياتٌ طارت من شباك غرفتي الصغيرة، اقتلعت قضبانه لتحلِّقَ في سماء وطني الذي سيظل حراً، ألم شعرت به على فراقي لكل أشياء رحلتي، كل شخصٍ عشت معه تجربة كان له حصةٌ في ذكرياتي لا تنسى، ألم الفراق اقترب من النهاية، وكلمات عبد اللطيف جعلتني أغفو بقية لياليّ الصامتة مزهوّاً بنفسي ومنتصراً، رغم الآلام الأخرى.

ربما شعرت أنني الرابح الآن مع انتصاري المؤكد بعبد اللطيف، لكنني شعرت بخساراتٍ غير منتهيةٍ على سنيني الضائعة وأحلامي المعلَّقة التي أضحت تفقد روحها شيئاً فشيئاً، معركة من الربح والخسارة لا تزال مستمرة مع اقتراب حريّتي، كان اقتراب موعد الإفراج يخيفني فعلاً، صرت على موعدٍ مع كل الحقائق الجديدة، خِفْتُ من المفاجآت التي قد تعصف بي وتدمِّرُ كل الأحلام، سنواتٌ من انعدام الحرية ستنتهي وتفتح قلبي على وقائعَ جديدةٍ، أخافتني هواجس الرحيل التي قد تكون تشكَّلت في غيابي... عن المكان.

عدت في ذكرياتي لحواري القصير مع أبي العوض المناضل، لقد أعطاني درساً عن السجن والمناضلين لا أنساه، لقد ذكَّرني بأننا هنا في السجن لأننا لم نمت، لا أدري كيف يُفَسَّرُ لي اقتراب رحيلي مع حكمته المرعبة؟ ربما يرى أننا في الأسر بحكم الأموات، وربما يذكرني أن العودة إلى الحرية من واقع السجن المؤلم هي بمثابة ميلاد جديد لكل حر، وربما أيضاً يدرك أن كلَّ من يطول انتظاره في الأسر يموت موقعه البطولي للأبد حتى يخرج، لا أدري ما

قصده؟ لكنه سيظل نقطة الانبهار الحقيقية في حياتي لرجلٍ ما استسلم يوماً، وما نسيَ تذكرينا بتعريف كلمة "مناضل" كما يجب أن تكون.

أشياءٌ أخرى حفظتها عن ظهر قلب، عبد اللطيف في الجريدة يهدي كلماته، مثلما أهدت أنصار تخرجها لوالدها المناضل الأسير، كنت أحد من أهدوا هذه الخواطر التي ظنَّها رفيق السجن قصيدةً، كانت خاطرةً تُقَدَّمُ لي في سجني على طبقٍ من انتصار، شعرت بانتصار حقيقيّ كشعور أبي العوض بانتصاره مع ابنته أنصار، كنت سأُهدى هذه الكلمات دون أن يذكرني عبد اللطيف، لكنه ذكرني وأصرَّ أن يهديها لي، بل ولصديقي الراحل، قال عبد اللطيف أنه يهدي خاطرته لمعلِّمه الأسير، وذكرني بالاسم، ولمعلمه الراحل وذكر صديقي الراحل خالداً، تذكرت صديقي فوراً وأقحمته في هذه البطولة، كان من حقِّ صديقي أن يُهدى هذا النجاح أكثر مني، صديقي هو من قرَّرَ ترك اسمٍ لعبد اللطيف من ذاته يعيش الحكاية، خالدٌ خَلُدَ الآن في واقعي... وإلى الأبد.

لم يذكر عبد اللطيف أيَّ اسمٍ آخر غيري وصديقي الراحل، خاطرته كانت منتقاة الكلمات، طفلي الحبيب لم يعد طفلاً مثلما لم تعد حبيبتي صغيرة، ليس المهمُّ طول الزمن الذي يجعلك كبيراً، سنةٌ واحدةٌ فقط قد تجعلك تبحر في التجارب ولن تبقيك كما أنت. كان عبد اللطيف يكبر خارج سجني، مليءٌ بعبق الذكريات والأشواق لمعلمَيه الراحلين، كبر عبد اللطيف خمس سنوات وأكثر، لم يعد طفلا وظل يحمل في ذاكرته الأشياء الجميلة، والوفاء المستحق من طفل كان أكثر من رائع، طفل أكدّ لي قبل سنوات خمس أنه سيكون وفيّاً، دائما، مهما طال الزمن أو قصُر، هكذا قرأتُ في عينيه قديماً وهذا ما تجلّى الآن في سجني الحقير الزائل!

كنت أكبر أنا في تجاربي داخل السجن آلاف السنوات، حوارٌ مع رجلٍ كأبي العوض يجعلك ترى المستقبل كغيمةٍ من طاقةٍ. أخبرني عبد اللطيف في خاطرته أنه ما نسينا يوماً ويتمنى اللقاء القريب معي، يتمنى لي الخروج من أسري، وصفني وصديقي الراحل بـ (معلما الطفولة الحزينة!)، وصف طفولته بالحزينة لأنه فقدنا مبكراً، ترحَّمَ على صديقي الراحل ودعا لي بالحرية، الغريب أنه دعا لي بالحرية! لا أعلم كيف يتابع أخباري؟ لكنني عدت إلى البطولة مجدداً... في سجني الحقير الزائل.

ذكرني مجدداً في خاطرته وقال إنه عشق هذين المعلمَين كثيراً، قال أنه كتب كلماته خصِّيصاً لي ولصديقي، وصفني بأغلى معلمٍ أسره عدوّ كل المدارس، ونعت صديقي بالراحل الذي أحبَّه كثيراً، لم يعرف بعد أن اسمه (ربما) سكن في بيت معلمه الراحل طيلة العمر، ولم يعرف أنه

كان سيولد من جديدٍ في جسد حبيبتي التي لا تزال تنتظر. كم تمنيت بعد إهداء عبد اللطيف هذا أن حبيبتي لا تزال تنتظر! وددت لو لم أمنحها الحرية كي أهديَ عبد اللطيف هديتي أنا الآخر، لم يعرف عبد اللطيف أنه بإهدائه وتذكرني يعيد بثَّ الأمل في نفسي من جديد، وللمرة الثانية، كان نجاحاً منقطع النظير رغم بساطته، بصماتي لم تنس طوال تلك السنين، بصمات أسابيعٍ قليلةٍ تُركت محفورةً في الصخر، عبد اللطيف حفظها كغيره، صورته في الصحيفة ذكرتني بصورةٍ لم أستطع حملها عند إلقاء القبض عليّ في منزلي ساعة الاعتقال، منعني الضابط من حملها وخطفها ليرميها في أرضية غرفتي، واستفزني بعبارةٍ ظلَّت تزيدني حقداً طوال فترة التحقيق، على ضابط منهزم حاول الاعتداء بكل جبروته على صورة :

- اترك الصورة يا حيوان!!

عادت الصورة إليَّ بعد خمس سنواتٍ، وكانت حرةً مفرحةً، صورة الولد الفلسطينيِّ الكاتب الذي يأبى إلا أن يهدي معلماً أحبَّه كلماته، أرادني عبد اللطيف أن أهين ذلك الضابط بإهدائي هذا التذكر، أراد أن يخبرني أنني لم أكن يوما حيواناً وضيعاً، وكان ذلك واقعيّاً، الصورة رمزت مجدداً للبقاء على كل العهود، وددت أن أري صورتي الجديدة لذلك الضابط لأذكره بموقفه القديم، وأردَّ عليه بعد هذه السنوات الخمس رداً لم أستطع ردّه حين هاجمني بشراسة، ردٌّ يفحمه ويزيدني فخراً وحماسةً ويجعلني بطلاً تُهدى إليه كل الكلمات:

- هي ذي صورتي، هي ذي، أنا معلم، بطل، مفكر، مناضل مقاوم، أنا خليل السكاكيني، أنا غسان كنفاني، أنا إدوارد سعيد، أنا محمود درويش.....

طال الرد كثيراً وما ظننته قد انتهى، طال الرد ليكتب كل الأسماء التي لن تزول من تاريخنا، طال الرد وما توقف عن سرد الأسماء لحظة واحدة، طال الرد كثيرا وأجبرت على حذفه كي لا تصبح حكاياتي سجلاً لأسماء كتبة تاريخنا المشرف الطويل، حذفت ما تبقى من أسماء وظلت في فكري وفي فكر كل فلسطينيّ، لم تسجل كل الأسماء في حكايتي ولكنها محفورة في أعماقي بأحرف من نور.

علَّقتُ صورته الجميلة في غرفة السجن الصغيرة وتذكرت الصورة الملقاة على أرضية غرفتي، شَمَخَتْ الصورة في غرفة السجن، الصورة ربما تحدثت عن بطولة الزمان في قصتي، الصورة التي ستحكي لكل الآخرين حكاية مواطنٍ حرٍّ يأبى إلا الحرية مبدأ، أدركت الآن كم هؤلاء السجَّانون أغبياء، حرمونا من الصحيفة ودرسوها ملياً لأسابيع، ولم يتعرفوا

على وصفة الانتصار التي تُمنح لنا في أسرنا، حاولوا مراقبة الصحيفة ولم يعرفوا أن خاطرةً قصيرةً كتبها شابٌ يافعٌ هي وسيلتنا في الصمود والنضال.

رفاق السجن أعجبوا بعد اللطيف العملاق، خاصةً عندما عرفوا تفاصيل إنقاذي المتكرر على يديه، رفاقي ربما تأكدوا الآن أيُّ جيلٍ مخلصٍ سيأتي لوطننا الذي أُسرنا من أجله، رفاقي لم يعرفوا بعد أن مأساة أبي حسانٍ الهارب لن تتكرر، لأن عبد اللطيف يقدم الصمود تلو الصمود، ويُطمئِنُ كل الأجيال الأسيرة أنه يعرف حكاية وطنٍ، وقصة محتلٍ زائلٍ. أبو العوض قد يجلس في غرفته شامخاً يوماً ما وجدران السجن تتهاوى أمام كل عملاق قرر تحرير وطنه، أبو العوض سيشعر بالفخر لأن تعاليمه ستجد يوماً ما نهايةً للنفق المظلم، بأجيالٍ أخرى قد يدركها، أنا قررت الفخر والشموخ ونقل تجربتي في سجني لكل المدارس، لكل الأجيال القادمة.
تخيلاتي في السجن ما لبثت أن تحوّرت وتغيرت إلى شكل جديد، أسميته النضوج الفكريِّ، تخيلاتي مع الألوان القديمة الأرجواني والأزرق والأحمر ذهبت أدراج الرياح وصرت أكثر (أدباً!) في حبي لساحرتي الراحلة المنتظرة، لم أحدد بعد إن صارت من الراحلين وفق تسلسل حكاياتي أم أنها لا تزال تنتظر حلماً اسمه حبيبٌ أسير، حكاية حبٍ عششت في قلبي أكبر من قصة أبي حسانٍ العاشق ورشيدة الراحلة عن عالم زوجها المتهاوي. طرأت في توقعاتي عودة ابن بطلي الراحل أبي حسان، تخيلت حسان البطل الذي لم يُقَدَّر لي معرفته يوماً ما، بطلٌ متخيّلٌ في وقتٍ غريبٍ، تخليت أنه قد عاد إلى مكان والده، حسانٌ الغائب دائماً في الأردن منذ أكثر من أربعين سنة، ربما عاد، أنا تخيلت عودته للمكان، صحيحٌ أنه لم يعد له مكان في الواقع، لأن والده الهارب قد فرَّطَ به قديماً، لكنه ربما عاد ليزور أطلالاً للمكان، ربما سيحاول أن يستردَّه بأيِّ ثمنٍ، ربما عاد وربما لم يعد، ربما فكر بالعودة ولم يستطع، وربما لم يفكر مطلقاً أن له مكاناً يوماً ما.

حسانٌ طرأ في ذهني مع كل الحكايات التي صار معظمها مُتَخَيَّلاً، هندٌ وعبيرٌ كان لهما بعض الحكايات في تخيلاتي الخريفية المجنونة، فهذه التخيلات وقعت في هذا الفصل المجنون (الخريف)، روائع خريفية لن تنسى، مع اقتراب الحرية كثيرا. هند قد تكون تَركت هي الأخرى حكايةً تذكرها بي، ربما يتردد اسمي كثيراً في بيتها، ربما قامت بترك اسمي ينمو في أحد أولادها، هكذا تمحورت بعض أحلامي. عبير تركت لي واقعاً مغايراً؛ تخيلات عنها قد تكون مضحكة، تخيلتها معلمة، ربما حكت لطالبتها عن أسرى الحرية وذكرتني كمثالٍ بسيطٍ، ربما ذكرتني لتُشهد المكان والزمان أنها لن تنسى حلماً عاش في ثناياها يوماً، ربما تذكرتْ

من هو الآن في غياهب السجون مع عدو مفترسٍ لا يرحم، وربما تخيّلتْ هي أنني أتخيّل هذا التذكر في سجني أيضاً.

لم تنتهِ التخيلات في سجني مطلقاً حتى حانت ساعة الحرية، فِراقٌ منشودٌ لكنه صعب، رفاق السجن الغوالي أصبحوا يعيشون في داخلي، رفاق المكان حان وقت فراقهم، صعوبة الرحيل تجلَّت في أصعب مواقفها، رحيل منشود مؤلم، فراق الأسر اللعين وفراق رفاقه الغالين، فراق لكل بطولات السجن الخرافية لأبطال خاضوا معارك الأمعاء الخاوية بكل رجولة، ما استكانوا وما هانوا، ودَّعنا البعض والآن من تبقى منهم يقومون بتوديعي، نأمل بلقاءٍ قريبٍ على تلال الحرية وجبالها، ليلة من الوداع عشتها بكل جوانحي، ليلة ليس فيها أي نومٍ بتاتاً، ليلة انقضت بطول سنواتي الخمس، ليلة تمنيت أن لا تنتهي أيضاً لأنها الأخيرة مع رفاقٍ لا يتكررون، ليلة أعجبت بها بتلاميذ أبي العوض سيّد المراحل البطولية في سجون القهر والظلم، ليلة حفرت فيها اسم خضر عدنان ورفاقه كرجال كانوا خير خلف لخير سلف .

قررت ألا يخرج معي من سجني سوى ثلاثة أشياءٍ عزيزةٍ، صورة عبد اللطيف وخاطرته، وورقة الحلويات التي وزعت بعد تخرّجت ابنة أبي العوض مع تقرير تخرجها في الجريدة، ورسالة حبيبتي المطمئنة. أما كل شيء آخر فقد تركته لواقع السجن الأليم، خرجت من السجن ولم أحدد بعد هل ربحت أنا أم خسرت؟ هل كنت رابحاً بتجربتي الطويلة وصراعي مع واقع الحياة أم أنني كنت الخاسر الأكبر في كل تجاربي؟ وربما الخاسر الوحيد، عدت للحرية وأنا أسير صراعي بين الربح والخسارة، لم أقرر بعد حسم أمري بين كوني رابحاً أم خاسراً، لا أدري لماذا كان الفرق بين الربح والخسارة بسيطاً جداً؟ لا أدري أي شيء سينتصر قريباً، بعد حريتي وتجدد معركتي مع كلّ الذكريات.

كان خروجي من السجن يعني انطلاق معركتي الجديدة من حيث توقفتْ، معركة لا بد أن تستمر رغم الانتصار الكبير، خمس سنوات من وقف معركتي، خمس سنوات قَضَمَتْ ما تبقى من انتصاري القديم قضماً، صارت حكايتي وتجربتي مع الماضي عبارة عن بقايا من انتصارٍ قديمٍ، وصار لا بد من دراسة تفاصيل معركتي المتوقفة الضائعة، حريتي فرضت عليَّ النبش في الأشياء التي تُركت معلقةً في ذاكرتي، لم أعرف بعدُ أيَّ رحيلٍ جرى أثناء غربتي الإجبارية، وأي ضياع لأحلامي قد تحقق الآن وصار عليَّ معرفته، لم أعرف من بقيَ من شخصياتي الساكنة شاهداً منتظراً، لم يتسنَّ ليَ التأكد بعد من بقاء حبيبتي منتظرةً كما وَعَدَتْ، ولم أتأكد من بقاء عبد اللطيف حُلماً لا يُنسى وفارساً منقذاً كعادته... خرجت من سجني ومعركتي لا تزالُ مستمرةً....!!!

٨- صراعٌ مع بواكير المطر.
(أنا الرابح... "بكلِّ تأكيد")

أواخر شتاء ٢٠١٣ قبيل الغروب ،،، التاريخ والتوقيت لم يعد مهماً....

غابت شمس القرية، كان منظراً لطالما عشقته واشتقت لرؤيته سنوات، غابت الشمس معلنة رحيل يوم من أيام الحرية الغالية، وبدأ الجو يشعرني بالبرودة في ذلك المساء البارد، وحدي على ذلك الجبل الشاهق الذي يطل على قريتي من جهة الشرق، كان الغروب أمامي مباشرة، جلست مستعيداً أحلامي الطفولية وذكريات صراعاتي المريرة مع كل تفاصيل حياتي، كنت مستلقياً على صخرةٍ مجوَّفةٍ في أعلى الجبل، سحرني ذلك المنظر كثيراً وأعادني إلى طقوسي الطفولية القديمة، إلى تقديسي للمكان، إلى ذكرياتٍ قد عصفت بي طويلاً، إلى عشقي لشخصياتٍ كانت قد سكنتني على مر السنين، كانت الشمس تغيب في لحظاتٍ مقدسة، اختفت أخيراً وراء جبالٍ بعيدة، وراء غيومٍ ملبّدة بالمطر، ذبل وجهها وصارت لحظاتها محدودة، غابت وراء سحبٍ سوداءَ مثقلة بالمطر، أنا لا أكره المطر ولا أبغض عواصف الصوت، أعشقها جداً، وأصلي لقداستها...

كنت وحدي على ذلك الجبل الذي اشتقت إليه كثيراً، واشتقت لرؤية قريتي من خلاله، وحيداً على ذلك الجبل في حريةٍ نادرةٍ منذ سنواتٍ أشعرتني بقيمتها كثيراً، وحدتي كانت جميلة (مع حريتي طبعا!)، حدَّقت في بيوت قريتي وصرت أعدُّها وأتخيل أبطالها، عدت لتخيلاتي في سجني وعشقي للمطر، قررت أن أخوض صراعاً أعشقه مع المطر، بواكير المطر في ظل الحرية، إنني أشهد أول مطر في ظل حريتي منذ سنوات، كان المطر المنتظر هو بواكير المطر بالنسبة لي، المطر سيهطل قريباً وسيغمرني وكل ذكرياتي معي، سيغسل سنوات السجن الطويلة بكلّ آلامها، المطر تساقط كثيراً هذا العام لكنني لم أشهده، سأشهد نهايات الشتاء الآن وبواكير مطري الحر، الآن هو الشتاء الحقيقي بالنسبة لي، رغم أننا في فصل الربيع الجميل، كم أشتاق لذلك الصراع الجنوني! وكم أتمنى حبيبتي معي في هذا الصراع! تمنيت أن حبيبتي معي هنا في الجبل، ترقص لي عارية، وأقبِّلها في كل تفاصيل جسدها المتموج، كانت أمنيات تطير وتغيب مع الشمس المفقودة وعواصف المطر المنتظرة، بكائي صار أغنية عشق عن كل من رحلوا في حياتي، وكل من سأفاجأ برحيلهم، ربما قريبا...!

تفحَّصتُ كل شارعٍ من شوارع قريتي، معارك كثيرة دارت في كل شارع بين كل أبطال الحكايات، الزمان والمكان والشخوص والأحداث... حارتي الزائلة كانت هناك، حددت موقعها جيداً، وحسان بطل توقعاتي في السجن لم يعد بعد، وربما ليس بعائد، حارتي دخلت في مشروع النسيان، هي مسألة وقت وتضيع ذكرى الحارة بمن سكنها، مسألة وقت ويضيع من يحتفظ بقصتها في ذاكرته، لولا أنه أرّخها في حكايته الحزينة، حكاية الرحيل والانهزام.

أيام عدة في الحرية بعد خروجي من سجني الطويل، أيام مرت بطول سنوات سجني الخمس حتى سنحت لي الفرصة لأصعد جبل الذكريات العالي، الجبل الذي عشقته كثيراً في سجني، واشتقت إليه أكثر، حنين لجبلي الشامخ ظل يكبر حتى صار كحنيني الحزين لشجرة الكينا القديمة، الجبل الذي سأفكر فيه كيف سأعود لتلك الشجرة إن بقي مجال للحلم في حكايتي، ذكرياتي الطويلة لا تزال عالقة بقوة في أمنياتي، لم أصل لحل بعد في فوبيا الربح والخسارة المذهلة، بتُّ كأبي حسان المنتظر أجلس لأنتظر الحلول المتوقفة، لا أدري إن كنت سأرحل مثله في النهاية أم لا، لا أدري فربما تأثير أبي العوض المناضل سيكون أقوى من تأثير أبي حسان الراحل.

هند وعبير غائبتان أيضاً، لم أتوقع أنا غير ذلك، لكنني راهنت أن أعرف أخبارهما بعد حريتي المتحققة، لكنني لم أعرف أي شيء عنهما سوى ما جرى في سنواتي القديمة من عشقٍ ورحيلٍ متكرر، حتى حبيبتي ساحرة الربيع الصغيرة لم أحدد مكانها بعد، ربما رحلت وفضَّلت

الابتعاد عن دنياي كلها، وربما نفَّذت رسالتي وقررت الانسحاب بهدوء تاركةً لحظات الرحيل كحالاتٍ لم تتحقق. هدوء تفكيري على الجبل بات كهدوء أبي حسان في انتظار الحقائق الغائبة، حقيقة غابت لسنوات طوال عني وعن أبي حسان أيضاً، رحيل قد يتكرر معي الآن وأصير عنواناً للراحلين المهزومين، فكرت بأبي العوض، وقررت أن أواجه كل حقيقة بقوة احتماليته في السجن، قررت أن أنفذ وصية أبي العوض وحقيقة موقفه من الحياة بعد أن نفذت وصية أبي حسان وبات موقفه مهزوماً في داخلي، قررت أن أكون أبا العوض بفكره وحقيقته النّضالية، وأبا حسان بصموده فقط، قررت أن أكون نسخة من أبي حسان المثالي... وأبي العوض الحقيقي.

سبب صعودي إلى الجبل في هذا اليوم كان مجهولاً، ربما لأنني أردت أن أفكر ملياًّ، غريب ألا أستطيع التفكير لخمس سنوات في واقعي، وأحتاج إلى يوم شتائي ممطر على قمة جبل لأفكر فيه، غياب شمس القرية بين سحب ماطرة ذكرني بمئات الغيبات القديمة التي شهدتها في قريتي، أجمل لحظات حياتي ولدت من جديد، شعرت بقشعريرة مخيفة حين فكرت أن كل ما كان قبل مرحلة سجني ربما يكون قد رحل إلى غير رجعة، شعرت بخوفٍ شديدٍ حين فكرت أن عليَّ أن أبدأ صفحة جديدةً مع الحياة، خمس سنوات طوت كل الأحلام، وأربعة أيام قضيتها في الحرية لم تفترق عن لحظات سجني إلا في رائحة الحرية وزهرات الربيع، كل قصصي السابقة المعلَّقة لا تزال غامضة، كل شيء ضاع ولم يكن من السهل استرجاعه، أدركت السبب الحقيقي لصعودي الجبل في هذا اليوم، فغداً سيكون بداية العودة لدوامي المدرسي بعد خروجي من الأسر، ربما سأبدأ مراحلي كلها من جديد، ربما معاركي السابقة صارت تجارب في الحياة... لا أكثر.

كم ندمت وأنا على الجبل على منح حبيبتي حرية الرحيل...! بدأ هطول المطر الجنوني مع لحظات الندم المؤلمة، وقفت على الصخرة وقد اختفت معالم القرية بين الظلمة والمطر، اختفى كل ما يمنحني طاقة الاستمرار والتواصل مع العالم الحي، تعريت تماماً على قمة الجبل وبدأ غزلي وحبي للمطر، بدأت بواكير المطر تغسل كل تجاربي وقصصي، مراحلي كلها بدأت تذوب مع عناق حبات المطر لجسدي الحزين، وبدأت أهبط عن الجبل بعد ذلك الرقص المنفرد الطويل على جبلي العالي، تارة أضحك وأقهقه على قصصي وخيالاتي الوقحة، وتارة أبكي على كل من رحلوا عن عالمي... رحيلهم الأخير، وتارة أبتسم ابتسامات خبيثة على تصرفاتي الجنونية، ماذا لو رآني أحد بهذه الهستيريا؟ هل سيعذر انطلاقي مع بواكير المطر والحرية؟ أم

سيتهم السجن بخطف عقلي كما اتهم الجنيات قديماً بخطف أبي حسان بطلـــي ذاك؟ ابتســمت وفرحت وبكيت وقهقهت ودمعت عيناي في لحظات العناق... مع بواكير المطر.

دخلتُ منزلي بعد ليلة المطر والحرية المجنونة، وصلت منزلي بعد انتصاف الليل بقليــل، لا يزال المطر يهطل بغزارة، غريب هذا الهطول في هذه الليلة، تماشى المطــر مــع إحيــائي لطقوسي المتوقفة قسراً منذ سنوات، كأن الشتاء عاد ليعطيني هديته النفيســة قبــل أن يعــاود الرحيل، كأن الشتاء يودعني على أمل اللقاء مع شتاء حقيقيّ في الحرية، قفز لذهني همٌّ وطني وشعبي، الهم الذي أحياه سجني وشعرت به هناك بقوة، الوطن الذي أثخنته الجــراح ويبحــث عن فرحته الأبدية، الوطن الذي يبحث عن غدٍ أجمل بين ثنايا الربيع، فرحت لأن الربيع هــلَّ علينا، وبواكير مطري تعطيني درساً أخيراً في العطاء، جميل جداً هو آذار، وجميلة جداً هــي نسائم ربيعنا الآتي.

.... <u>بعد مرور "أســـابيع"</u>:

في غرفتي الصغيرة جلست متململاً من نفس الصداع الذي يرافقني من ضغوط العمــل، ابتسمت طويلاً وأنا أفكر في رحلتي الطويلة، ابتسمت لأنني لمحت شجرة الكينا في مدرســتي القديمة عصر هذا اليوم بعد حنينٍ طويل، لمحتها بالصدفة من بعيد، ويا لها من صدفة! رأيتها شامخة أمام مدرستي الحبيبة، زرت تلك القرية التي فيها مدرسة الذكريات والشجرة المقدســة في داخلي، ونظرت لمدرستي وشجرتي من بعيد، أزمان غير منتهية مرت في ذهني أثناء تلك النظرة المليئة بالشوق والحب، انهمرت دموعي حباً في ذكريات ذلك المكان، كأن مارداً يدعى عبد اللطيف سيخرج من قلب مدرستي ويصل عنان السماء، أصابني حنين شديد حين رأيــت مكاني العزيز، رغبت فعلاً بالركض تجاه مدرستي لأحتضن شجرتي في بكاء هستيري، لكــن تذكري لأبي حسانٍ (المجنون!) جعلني ألغي الفكرة وأكتفي ببكاءٍ شديدٍ هزَّ مشــاعر مرافقــي كثيراً، هذا ما حدث وجعل حنيني يشتعل مجدداً على تلك الذكريات مع صديقي الراحل خالد.

لم أجرؤ أن أزور مدرستي مطلقاً، أسابيع عدة بعد خروجي من سجني وأنا أخاف زيارتهــا، شعرت بالفخر والحنين الشديدين على ذكرى هذه الشجرة العملاقة في نفسي، صارت بطلة في داخلي، صارت غالية كشخصياتي الراحلة، شخصياتي الأسيرة والمفقودة، استقرت عند حارتي الحبيبة في أعماق أعماقي، أعماقٌ اتسعت لكل الحيوات وكل الشخصيات الحبيبــة. شــعرت بشوقٍ شديدٍ لتفقد أغلى أشيائي، فتحت صندوقي الخاص الذي أعددته للذكريات، قررت تفقــد أشيائي الغالية، تناولت رسالة حبيبتي وقبَّلتها، الحبيبة الراحلة مجدداً إلى مكــانٍ لــم أرغــب

بمعرفته، مع أنني كنت أستطيع معرفته، لكنني منحتها كل الحريات التي تستحقها، ولم يعد الندم مجدياً. وما لبثت أن تفحصت ورقة الحلويات الغالية، "حلوان" تخرّج ابنة أبي العوض المناضل، فرحت لهذه الورقة وحزنت ملياً لأن بطل هذه الورقة لا يزال أسيراً، ربما يرى الحرية قريباً في إحدى صفقات التبادل، وربما تتأخر حريته كثيراً، ربما يعيش الآن في حالة تذكر طويلة على صراعاته مع الزمان والمكان، وربما علّق صفحة الجريدة التي فيها حوار ابنته على جدران السجن الزائلة، ربما راهن أيضاً أن هذه الصفحة ستضرب جدار السجن وتخرجه منه يوماً ما، قد يكون قريباً. تناولت بعد ذلك ورقة الجريدة التي كتب فيها عبد اللطيف خاطرته بصورته التي تزيِّنها، قرأت الخاطرة عدة مراتٍ وتفحصت صورته من جديد، ثم نظرت للصورة القديمة التي رماها الضابط اللعين ليلة سجني، تخليت نفسي خليل السكاكيني في حبه لولده وحنينه إليه، كأنني السكاكيني في شوقه الشديد، وكأن عبد اللطيف ولدي الغائب الغالي.

شيء آخر كان قد سكن صندوق ذكرياتي، لوحة لفنانٍ صغير، (رسمة) بسيطة لطفل عشقت رسمته التي أهداها لي، وما أعظمها من هدية! كانت اللحظات التاريخية قبل أيام قلائل، حين وصلت تلك المرأة إلى منزلي مع طفلها الصغير، لم أعرفها مطلقاً، ولم أعرف الرجل الستينيّ الذي يرافقها، لكنني ما لبثت أن بكيت طويلاً وأنا أحتضن الطفل الغالي، هذا الطفل الذي حدد كل مراحلي بالربح المؤكد، إنه عبد اللطيف، عبد اللطيف الذي قمت أنا بتسميته قبل سنوات، عبد اللطيف الذي حاربت أنا ووالده الحبيب كل الأشياء، عبد اللطيف الذي تخيلته يجلس الآن بفخرٍ تحت شجرة الكينا، دموعي انهمرت وكدتُ أطير إلى شجرة الكينا، أكاد أحطم كل نوافذ المستقبل حنيناً لكل معاركي وانتصاراتي، احتضنته بوجدٍ وحنانٍ، وبكت والدته الحزينة التي أدركت أيَّ صديق كنت لوالده، أهداني لوحته الغالية، كانت أغلى من كل لوحات (بيكاسو) و(فان كوخ)، أغلى من موناليزا (دافنشي) بكثير، تفحصت اللوحة لساعات، كانت أكثر من مجرد لوحة رسمها طفل صغير، أوحت لي لوحته كل تفاصيل الحكاية، حكاية خريف ومكان لا تنتهي، صراعات الزمان والمكان ورحلة الشخصيات مع المواقف والأحداث. استغربت من وجود شجرة باسقة في لوحته، كانت أشبه بشجرة الكينا التي في مدرستي الغالية، أكاد أجزم أنها هي، ناهيك عن البيوت القديمة الممتدة، إنها حارتي الزائلة بالتأكيد، شجرة الكينا وحارتي الجميلة، فاجأني أيضاً الرجل الذي رسمه طفلي تحت شجرة الكينا، ملامحه لم تكن واضحة، لكنني أكاد أجزم أنها ملامح أبي العوض الأسير المناضل، إنه أبو العوض الأسير تحت شجرة الكينا العظيمة في حارتي المفقودة الراحلة... إنها لوحة للحياة لا تنسى...

في حقيقة الأمر، لا أدري كيف عرف الطفل الصغير عبد اللطيف بكل أطياف حكاياتي ورسمها لي مجتمعة؟ حارتي الزائلة رسمها بمداد قلمه السحري، وشجرة الكينا تطاول السماء في وسط الحارة، أبو العوض شامخ تحتها كأسدٍ، أبو العوض عاد للحرية في لوحة طفلي الصغير وحارتي الزائلة لا تزال موجودة، لم أعرف سبب وجود أبي العوض في حارتي، كما لم أدرك سبب غياب أبي حسان عنها، لماذا لم يعيده طفلي لحارته؟ لماذا استردَّ أبو العوض حارة أبي حسان ولم يستردها أبو حسانٍ نفسه؟ لم أعرف السبب لكنني فرحت لأن من استردّها أعادها لأحضان المكان مجدداً. أبو العوض الحر وشجرة الكينا الشامخة وحارتي المستردة صارت عنواناً لكل أحلامي المستقبلية، كل شيء صار رائعاً الآن رغم كل أنواع الرحيل التي مرت في حياتي، كل حق عائد لأصحابه، ولا بد، وكل تفريط جرى لن يتكرر مطلقاً، امتداد الأجيال مستمر وتأصيلهم مستمر في حكاية شعب لم يخنع يوماً، جلست أخيراً وقد زال صداعي نهائياً وازداد نشاطي، لأفكر مجدداً في الفوبيا الغريبة العجيبة التي ترافقني من أيام السجن، وصلت أخيراً لقرار واستنتاج نهائي، وصلت له بعد حساباتٍ واسعة طويلة ممتدة، أنا الرابح.... "بكل تأكيد":

مرتحل إلى بياض اللازَوَرْد
حيث الله ... حيث الله
والقبلات فوق الخد
فوق جبينه الحنطيّ
أوراق خريفية
وأمطار خريفية
و أثواب من استبرق
***
وذاب جواهر الأشياء
طار حمامنا الزاجل
إلى أرضٍ سماوية
يناجي الملك والملكوت
وتبكي حوله الدنيا
وحتى الصخر والغيمات
أيادٍ تحمل الهودج
***